مجلة جامعة الملك سعود، م٢١، العلوم التربوية والدراسات الإسلامية (١)، ص ص ١٣١-١٨٠، الرياض (٢٠٠٩م/١٤٣٠هـ)

الأحرف المقطعة في أوائل السور

دراسة تفسيرية

عادل بن علي الشدي

أستاذ مشارك، التفسير وعلوم القرآن، جامعة الملك سعود،

الرياض، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في ٣/ ١/١٤٢٧هـ، وقبل للنشر في ٢٩/ ٢/ ١٤٢٨هـ)

ملخص البحث. يعرض البحث لقضية اختلفت فيها أقوال المفسرين وتنوعت فيها آراؤهم تنوعاً وصل إلى حد التضاد في كثير من الأحيان، وكان مرد ذلك بالدرجة الأولى إلى الاختلاف في النظر إلى الأحرف المقطعة في أوائل السور أهي من المحكم معلوم المعنى أم من المتشابه الذي لا يمكن تحديد معناه.

بيّن البحث أهمية هذا الموضوع بالنظر إلى كون هذه الأحرف من القرآن الذي أمر الله تعالى بتدبره، وفهم معناه، وأن من هذه الأحرف ما يُعد آية كاملة، ومنها ما يُعد آيتين، وأن فواتح الكلم عند أهل البلاغة هو المنبه على مقصوده الهادي إلى مراميه، وأن ما ورد من أقوال عن كثير من السلف ومنهم جمع من الصحابة في معاني الأحرف المقطعة فيه دلالة على أهمية البحث في ذلك؛ إضافة إلى وجود الأقوال الشاذة المنحرفة في معاني هذه الأحرف قديماً وحديثاً، ولا يمكن رد هذه الأقوال وبيان ضعفها إلا بدراسة هذه القضية من جوانبها المختلفة.

كان من اللافت تفاوت أقوال المفسرين في المعنى المراد بالأحرف المقطعة؛ ففي حين عدّها البعض من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، زعم البعض أنها أسماء لله تعالى، أو للقرآن، أو لبعض سور القرآن، أو أقسام بل وجازف البعض فجزم بأن المراد بها رموز لكلمات بلغات غير العربية كالهيروغليفية أي أنها حروف ترمز إلى حوادث بحسب حساب الجمل، وقد قام الباحث في الفصل الأول من هذه الدراسة الذي اشتمل على تسعة مباحث باستعراض هذه الأقوال بأدلتها مع مناقشة كل قول وبيان أوجه القوة والضعف فيه.

وتوقف الباحث عند الخلط الذي وقع فيه بعض الباحثين بين الأقوال الواردة في معاني الأحرف المقطعة، والأقوال الواردة في حكم وأسرار افتتاح بعض السور بها فأفرد هذه المسألة بفصل اشتمل على ثمانية مباحث تدور بين التحدي والإعجاز والفصل بين السور، والتنبيه والجذب لسماع القرآن والدلالة على الإعجاز اللغوي والموضوعي وأقوال أخرى في ذلك.

وختم الباحث دراسته بذكر خلاصة القول وما ترجح له في معنى الأحرف المقطعة في أوائل السور والحكمة منها.

المقدمـــــة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد.. فقد نزل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وسلم لهداية الناس وإرشادهم إلى طريق السعادة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وزجرهم عن طريق الغواية والضـلال. قال تعـالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]. وقال: ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥- ١٦].وقال: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١]. وقد أمر الله تعالى بتدبر آيات هذا الكتاب العزيز، وبيّن أن الفائدة لا تتم إلا بتدبره فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]. وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]. وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] . قال ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [محمد: ٢٤] فيتفكرون فيه، فيرون تصديق بعضه لبعض، وأن أحداً من الخلائق لا يقدر عليه. وقال الزجاج: التدبر: النظر في عاقبة الشيء.(١)

غير أن بعض القرآن يحتاج إلى دقيق نظر وسعة علم، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ . [النساء: ٨٣]. فالقرآن منه ما هو محكم ومنه ما هو متشابه كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]. والمحكم هو الواضح المعنى البين الذي لا يشتبه بغيره، فهو ما عرف تأويله، وفهم معناه وتفسيره. والمتشابه الذي يحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها معنى دون آخر.

ومن العلماء من رأى أن المتشابه يمكن التوصل إلى معناه عن طريق ردّه إلى المحكم، ولا يتيسر ذلك إلا للراسخين في العلم. قال الشيخ السعدي: "وأما أهل العلم الراسخون فيه الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم فأثمر لهم العمل والمعارف، فيعلمون أن القرآن كلّه من عند الله، وأنه كلّه حق محكمه ومتشابهه، وأن الحقّ لا يتناقض ولا يختلف. فلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان يردّون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم والمعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعودُ كلّه محكماً"(٢) وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الرأي، وانتصر له أتم انتصار.(٣) ويمكن أن يقال: إن من المتشابه مالا يعلمه إلا الله، ومنه ما يعلمه الراسخون في العلم بردّه إلى المحكم.

إن بحثنا هذا يدور حول الأحرف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية والتي اختلفت في معناها

---

(١) زاد المسير (٢/١٤٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص (١٠١، ١٠٢).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧/٤٠٦) وما بعدها.

ودلالاتها أقوال المفسرين وتنوعت آراؤهم اختلافاً وتنوعاً شديداً.

وسبب هذا الاختلاف – فيما أرى – هو اختلاف النظر إلى هذه الأحرف، هل هي من المحكم معلوم المعنى أم من المتشابه الذي لا يمكن تحديد معناه، وهل هي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه على قول من قال ذلك أم من المتشابه الذي يمكن للراسخين في العلم تحديد معناه؟

إن البحث في الأحرف المقطعة لا يعدُّ ترفاً فكرياً غير ذي جدوى للأسباب الآتية:

أولاً: أن هناك إجماعاً على أن هذه الأحرف هي من القرآن الذي أمر الله تعالى بتدبره وفهم معناه، فنحن مأمورون بتدبر هذه الأحرف المقطعة ومعرفة دلالاتها والهدف من افتتاح بعض السور بها.

ثانياً: أن من هذه الحروف ما يُعدُّ آية كاملة، ومنها ما يعدُّ آيتين كاملتين، كما أشار إلى ذلك علماء عدِّ الآي في مصنفاتهم ومنهم: أبو عمرو الداني حيث أسند إلى غير واحدٍ من الصحابة كعلي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه عدَّ "الم" آية، و"كهيعص" آية، و"طه" آية، و"حم" آية، بل إن العدَّ الكوفي يجعل قوله تعالى: "حم عسق" آيتين اثنتين.(٤) فنحن إذن أمام آيات كاملة وبعض آيات، فالقول بعدم فائدة البحث فيها غير صحيح لأنه يمنع البحث في بعض آيات من القرآن بغير دليل صحيح يعتمد عليه.

ثالثاً: أن فواتح الكلم يعدّه العلماء من أهم الكلام، لأنه هو المنبه على مقصوده، الهادي إلى مراميه، وقد ذكر أبو هلال العسكري أنهم كانوا يقولون: "أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات فإنهن دلائل الإعجاز" فكيف تكون فواتح الكلام بهذه الأهمية ويزعم أن البحث فيه غير ذي أهمية؟

رابعاً: أنه ورد عن كثير من السلف أقوال في معاني تلك الحروف ودلالاتها، مما يدل على أهمية البحث في ذلك.

خامساً: أن هناك أقوالاً شاذة قديماً وحديثاً حول معاني تلك الحروف ودلالاتها، ومن أحدثها تفسير تلك الحروف باللغة الهيروغليفية (المصرية القديمة) ولا يمكن ردّ تلك الأقوال وإبطالها وبيان تهافتها إلا بدراسة تلك القضية من كافة جوانبها، لبيان وجه الصواب فيها.

ومع حرصي على عدم إثقال البحوث العلمية بالنقول التي لا تمس الحاجة إليها إلا أنني رأيت الحاجة قائمة في مثل هذا البحث إلى الإكثار من النقول عن أئمة هذا الشأن وكبار المفسرين مع استيفاء القول لإقناع القارئ بوجهة نظر المفسر، أو على الأقل إنصافه بذكر حججه التي استدل بها لا سيما مع ورود أقوال متعارضة عن العلم الواحد في بعض الأحيان مما أدى إلى خلط في نسبة الأقوال عند بعض الباحثين مع الاستغناء بالنقول المحررة عن التعليقات المكررة التي تضخم البحث بإعادة فحوى كلام المنقول عنه.

ولذا فسوف أذكر أقوال أهل العلم وغيرهم من القدماء والمحدثين فيما يتعلق بتلك الحروف المقطعة، وحجة كل منهم في ذلك إن وجدت، مع مناقشة كل

---

(٤) البيان في عدِّ آي القرآن لأبي عمرو الداني، تحقيق د. غانم قدوري الحمد (١/٥٨، ١/٩١)، وانظر في ذلك الكشاف (١/٣١)، والبرهان (١/٢٣٥)، والإتقان (١/١٨٨).

قول من تلك الأقوال وبيان أوجه القوة والضعف فيه، ثم أذكر – إن شاء الله – ما يترجح لديَّ من تلك الأقوال.

وبعد التتبع والنظر فيما ورد عن العلماء والأئمة حول هذه الحروف المقطعة، فقد قمت بتقسيم هذا البحث إلى مقدمة وإلى فصلين وخاتمة:

الفصل الأول: أقوال العلماء في معاني الحروف المقطعة. وفيه تسعة مباحث.

الفصل الثاني: أقوال العلماء في حكم وأسرار افتتاح سور القرآن بهذه الحروف المقطعة. وفيه ثمانية مباحث.

الخاتمة وفيها خلاصة القول الذي توصلت إليه في معنى الأحرف المقطعة والحكمة منها.

هذا وأسأل الله تعالى التوفيق والسداد، فهو سبحانه الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الأول: أقوال العلماء في معاني الحروف المقطعة

- المبحث الأول: أنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.
- المبحث الثاني: أنها أسماء لله تعالى أو أنها تدل على الاسم الأعظم.
- المبحث الثالث: أنها تدلُّ على أسماء الله تعالى وصفاته.
- المبحث الرابع: أنها أسماء لله تعالى ولغير الله.
- المبحث الخامس: أنها أسماء لسور القرآن.
- المبحث السادس: أنها أسماء للقرآن.
- المبحث السابع: أنها أقسام.
- المبحث الثامن: أنها حروف تدل على الحوادث بحسب حساب الجمل.
- المبحث التاسع: أنها تدلُّ على معانٍ شتى.

المبحث الأول: أن الأحرف المقطعة من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه

القائلون به

هذا القول مروي عن الخلفاء الراشدين الأربعة، وابن مسعود، والشعبي، وأبي صالح، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، وسفيان الثوري، والحسين بن الفضل، والربيع ابن خثيم، وأبي بكر بن الأنباري، وجابر بن عبدالله بن رئاب.(٥)

تفصيل القول

روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: "لله عزَّ وجلَّ في كل كتاب سرٌّ، وسرُّ الله في القرآن: أوائل السور".(٦) وعن عليّ رضي الله عنه قال: "لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي". (٧)

وقال داود بن أبي هند: كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال: يا داود إن لكل كتاب سرًّا، وإن

---

(٥) انظر: زاد المسير (١/ ٢٠). ابن كثير (١/ ٥٢، ٥٣). القرطبي (١/ ١٥٤). لباب التأويل (١/ ٢٢). فتح البيان (١/ ٥٦). مفاتيح الغيب (١/ ٤) : نظم الدرر (١/ ٣٠).

(٦) زاد المسير (١/ ٢٠). البغوي (١/ ٤٤). ابن كثير (١/ ٣٦). أبو السعود (١/ ٢١). لباب التأويل (١/ ٢٢). أنوار التنزيل (١/ ١٥). فتح البيان (١/ ٥٦). نظم الدرر (١/ ٣٠).

(٧) البغوي (١/ ٤٤). ابن كثير (١/ ٣٦). أبو السعود (١/ ٢١). لباب التأويل (١/ ٢٢). أنوار التنزيل (١/ ١٥). فتح البيان (١/ ٦٥). مفاتيح الغيب (١.٤). نظم الدرر (١/ ٣٠).

سرّ القرآن فواتح السور، فدعها وسل عن ما سوى ذلك.[٨]

وقال الشعبي وسفيان الثوري وجماعة من المحدثين: هي سرُّ الله في القرآن، ولله في كل كتاب من كتبه سر، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحبُّ أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها، ونمرّها كما جاءت.[٩]

وذكر أبو الليث السمرقندي عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا: الحروف المقطعة من المكتوم الذي لا يفسَّر. وفائدة ذكرها: طلب الإيمان بها، ولا يلزم البحث عنها، فهي مما استأثر الله بعلمه.[١٠]

وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف المقطعة في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله عزَّ وجلَّ بها.[١١]

قال القرطبي: "ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباري عن الربيع بن خثيم قال: إن الله تعالى أنزل هذا القرآن، فاستأثر منه بعلم ما شاء، وأطلعكم على ما شاء، فأما ما استأثر به لنفسه، فلستم بنائليه، فلا تسألوا عنه، وأما الذي أطلعكم عليه، فهو الذي تسألون عنه، وتخبرون به، وما بكلّ القرآن تعلمون، وما بكلّ ما تعلمون تعملون. قال أبو بكر [الأنباري]: فهذا يوضح أن حروفاً من القرآن سترت معانيها عن جميع العالم، اختباراً من الله عزَّ وجلَّ وامتحاناً، فمن آمن بها أثيب وسعد، ومن كفر وشك أثم وبُعد".[١٢]

ويرى هود بن محكم الهواري في تفسيره أن هذه الحروف من المتشابه.[١٣] وقال الحسين بن الفضل: هو من المتشابه.[١٤] قال النسفي: "وقيل إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها".[١٥]

هذا مجمل ما ورد عن القائلين بأن معاني ودلالات تلك الأحرف المقطعة هي من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه.

وحجة هؤلاء فيما يبدو لي – أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد عنه شيء في معاني هذه الأحرف على الرغم من أن السور التي افتتحت بالأحرف المقطعة بلغت تسعاً وعشرين سورة، فلما لم يبيِّن النبي صلى الله عليه وسلم معنى شيء منها دلَّ على أنه من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وقد ذكر في ثنايا ما سبق أن الفائدة من ذكر هذه الأحرف هو طلب الإيمان بها، وإن جُهل معناها، وذلك على سبيل الاختبار والامتحان، فهي من جنس الإيمان بالغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ويبدو أن القرطبي نصر هذا القول في "جامعه" فبعد أن ذكر كلام أصحاب هذا القول قال: قلت: هذا القول في المتشابه وحكمه، وهو الصحيح على ما

---

(٨) الوسيط (١/٧٥). البغوي (١/٥٨).

(٩) القرطبي (١/١٥٣). فتح البيان (١/٥٦). الجواهر الحسان (١/٤٦).

(١٠) فتح البيان (١/٥٦).

(١١) القرطبي (١/١٥٤). فتح البيان (١/٥٦).

(١٢) القرطبي (١/١٥٤).

(١٣) تفسير هود بن محكم الهواري (١/٧٨).

(١٤) مفاتيح الغيب (١/٤).

(١٥) تفسير النسفي (١/٩).

يأتي بيانه في "آل عمران" إن شاء الله تعالى.[١٦] وذكر ابن كثير أن هذا القول هو اختيار أبي حاتم ابن حبان[١٧]. وقد رجح هذا القول أيضاً الصاوي في حاشيته على الجلالين.[١٨]

وقد اعترض على هذا القول "بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون، وأجيب عنه بأنه يجوز أن يكلف الله عباده بما لا يُعقل معناه، كرمي الجمار، فإنه مما لا يعقل معناه، والحكمة فيه هو كمال الانقياد والطاعة، فكذلك هذه الحروف يجب الإيمان بها، ولا يلزم البحث عنها".[١٩]

أما الفخر الرازي فقد ذكر إنكار المتكلمين لهذا القول فقال "واعلم أن المتكلمين أنكروا هذا القول، وقالوا لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهوماً للخلق، واحتجوا عليه بالآيات والأخبار والمعقول".

أما الآيات فقد ذكر أربع عشرة آية من الآيات التي تأمر بتدبر القرآن، وكونه نزل بلسان عربي مبين، وتبين أنه نزل هدى للناس وتبياناً لكل شيء، وأنه حكمة بالغة وشفاء لما في الصدور وبلاغ للناس وكفاية لهم. ومن الآيات التي ذكرها قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء ١٩٢- ١٩٥]. ثم قال: "فلو لم يكن مفهوماً بطل كون الرسول صلى الله عليه وسلم منذراً به. وأيضاً قوله تعالى: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٥]، يدلّ على انه نازل بلغة العرب، وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يكون مفهوماً. وقوله: ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء:٨٣]. والاستنباط منه لا يمكن إلا مع الإحاطة بمعناه. وقوله: ﴿هدى للمتقين﴾ وغير المعلوم لا يكون هدى.[٢٠]

ثم قال: "وأما الأخبار فقوله عليه السلام: "إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وسنتي".[٢١] فكيف يمكن التمسك به وهو غير معلوم؟ ... وأما المعقول فمن وجوه:

أحدها: أنه لو ورد شيء لا سبيل إلى العلم به لكانت المخاطبة به تجري مجرى مخاطبة العربي باللغة الزنجية، ولمّا لم يجز ذلك فكذا هذا.

وثانيها: أن المقصود من الكلام الإفهام، فلو لم يكن مفهوماً لكانت المخاطبة به عبثاً وسفهاً، وأنه لا يليق بالحكم.

وثالثها: أن التحدي وقع بالقرآن، وما لا يكون معلوماً لا يجوز وقوع التحدي به، فهذا مجموع كلام المتكلمين".[٢٢]

ولا ريب أن هذا الكلام غير مسلّم به، وفيه الزام لأصحاب هذا القول بما لا يلزمهم، وكأنهم يقولون إن القرآن غير مفهوم، وهم إنما أرادوا حروفاً يسيرة استأثر الله تعالى بعلمها، وجعلها من المتشابه به الذي لا يعلمه سواه، وهذا لا ينافي كون القرآن واضحاً

(١٦) القرطبي (١/١٥٥).

(١٧) ابن كثير (١/٥٣). أضواء البيان (٣/٣).

(١٨) حاشية الصاوي على الجلالين (١/١٠).

(١٩) لباب التأويل (١/٢٢، ٢٣).

(٢٠) مفاتيح الغيب (٢/٤).

(٢١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/١٧٢) وصححه الألباني برقم ٢٩٣٧ في صحيح الجامع.

(٢٢) مفاتيح الغيب (٢/٥).

مفهوماً معلوماً هدى للناس، وحكمة بالغة، وشفاء لما في الصدور، وذكرى لأولي الألباب، ولا ينافي – كذلك – أن يكون لهذه الحروف معاني وأسرار لا يعلمها إلا الله.

والرازي نفسه لم يسلّم لهؤلاء المتكلمين، بل ذكر حُجج مخالفيهم فقال: "واحتج مخالفوهم بالآية والخبر والمعقول؛ أما الآية فهو أنه من المتشابه من القرآن وأنه غير معلوم، لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧]. والوقف هاهنا واجب لوجوه:

أحدها: أن قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ لو كان معطوفاً على قوله (إلا الله) لبقي: ﴿ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾. منقطعاً عنه، وأنه غير جائز، لأنه وحده لا يفيد، لا يقال: إنه حال، لأنا نقول حينئذٍ: يرجع إلى كلّ ماتقدم، فيلزم أن يكون الله تعالى قائلاً: آمنا به كلٌّ من عند ربنا، وهذا كفر.

وثانيها: أن الراسخين في العلم لو كانوا عالمين بتأويله لما كان لتخصيصهم بالإيمان به وجه، فإنهم لماعرفوه بالدلالة لم يكن الإيمان به إلا كالإيمان بالمحكم، فلا يكون في الإيمان به مزيد مدح.

وثالثها: أن تأويلها لو كان مما يجب أن يعلم لما كان طلب ذلك التأويل ذمًّا، لكن قد جعله الله تعالى ذمًّا حيث قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ ﴾ [آل عمران: ٧].(٢٣)

وأما الخبر فقد روينا في أول هذه المسألة خبراً يدلُّ على قولنا، وروي أنه عليه السلام قال: "إن من العلم كهيئة المكنون، لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به أنكره أهل الغرة بالله".(٢٤) ولأن القول بأن هذه الفواتح غير معلومة مروي عن أكابر الصحابة، فوجب أن يكون حقاً، لقوله عليه السلام: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم".(٢٥)

وأما المعقول: فهو أن الأفعال التي كلفنا بها قسمان: منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا، كالصلاة، والزكاة، والصوم، فإن الصلاة تواضع محض، وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة.

ومنها مالا نعرف وجه الحكمة فيهن كأفعال الحج، فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة، والرمل، والاضطباع، ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من

---

(٢٣) المسألة مختلف فيها والصحيح أن من المتشابه ما يعلمه الراسخون في العلم انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٨١/١٧) وما بعدها.

(٢٤) رواه أبو عبدالرحمن السلمي في (الأربعين في التصوف من حديث أبي هريرة قال الحافظ العراقي في المغني (إسناده ضعيف) وقال الألباني ضعيف جداً. انظر: ضعيف الترغيب والترهيب حديث رقم ٧٠ والسلسلة الضعيفة (٢٦٢/٢) حديث رقم ٨٧٠ والسلسلة الضعيفة حديث ٥١١٧ وقال: منكر.

(٢٥) قال ابن حجر في لسان الميزان ١١٨/٢ وهو في غاية الضعف وقال الألباني عنه: موضوع انظر: السلسلة الضعيفة (١٤٤/١) حديث رقم ٥٨.

الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول، فكذا يحسن الأمر منه بالنوع الثاني، لأن الطاعة في النوع الأول لا تدلُّ على كمال الإنقياد، لاحتمال أن المأمور إنما أتى به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه. أما الطاعة من النوع الثاني فإنه يدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم، لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة ألبتة، لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم.

فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال، فلم لا يجوز أيضاً في الأقوال؟ وهو أن يأمرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود من ذلك ظهور الانقياد والتسليم من المأمور للآمر.

بل فيه فائدة أخرى، وهي أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه على القلب، وإذا لم يقف على المقصود، مع قطعه بأن المتكلم بذلك أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه ملتفتاً إليه أبداً، ومتفكراً فيه أبداً، ولباب التكليف: إشغال السرّ بذكر الله تعالى، والتفكر في كلامه، فلا يبعد أن يعلم الله تعالى أن في بقاء العبد ملتفت الذهن، مشتغل الخاطر بذلك أبداً مصلحة عظيمة له، فيتعبده بذلك تحصيلاً لهذه المصلحة".[٢٦]

هذا ما أورده الفخر الرازي من حجج القائلين بأن هذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وهذا الكلام أيضاً لا يُسَلّم جميعه، بل عليه بعض الإيرادات منها:

أولاً: أن بعض الصحابة ذهبوا إلى تفسير كثير من المتشابه، وهذا موجود كثيراً في تفاسيرهم مما يدلّ على أن الراسخين في العلم يمكن أن يتوصلوا إلى فهم بعض المتشابه بردّه إلى المحكم.

ثانياً: أن ابن عباس تكلم في معاني تلك الحروف وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، فلو كان البحث في ذلك محظوراً لما تكلم فيه ابن عباس رضي الله عنهما.

ثالثاً: أن الذين اجتهدوا في معاني ودلالات تلك الحروف، لا يفعلون ذلك ابتغاء الفتنة بل درءاً للفتنة عن كتاب الله تعالى حتى لا يقال: إن في القرآن ما لا سبيل إلى فهمه.

رابعاً: إن ما ذكره الرازي من أخبار وأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح عنه بل هو موضوع مكذوب عليه، وكذلك فهو لا يدلّ على ما ذهب إليه هذا الفريق، لأن القضية ليست محل إجماع أو اتفاق، بل إن الخلاف فيها واسع والآراء متشعبة، وقوله: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" يؤدي إلى صواب القول أو الفعل ونقيضه وهذا محال، فإن الصحابة اختلفوا خلاف تضاد في بعض المسائل ولم يقل أحد بأن الحق مع الجميع. ولو طبقنا هذا الأثر على هذه المسألة التي نحن بصدد بحثها لكانت تلك الأحرف المقطعة من المتشابه ومن غير المتشابه في آن واحد وهذا لا يقول به عاقل.

خامساً: القول بأن الطاعة إذا علم منها وجه الحكمة لا تدل على كمال الانقياد، وإذا جُهل منها وجه الحكمة فإنها تدل على كمال الانقياد لا يمكن

---

(٢٦) مفاتيح الغيب (٢/ ٥، ٦).

قبوله على إطلاقه، لأنه يؤدي إلى مدح الجهل وذم العلم.

سادساً: القول بأن الإنسان إذا وقف على المعنى سقط وقعه على القلب، وإذا لم يقف على المقصود، فإنه يبقى قلبه ملتفتاً إليه أبداً ومتفكراً فيه أبداً، قول لا يمكن قبوله، بل هو من الباطل الذي لا مرية فيه. لأن الألفاظ ذات المعاني هي التي تقع على القلب وتؤثر فيه، وليست الألفاظ المجردة من المعاني، وكلما كثرت المعاني وتواردت على القلب كان وقعها أقوى وتأثيرها أشد، وأنّى لجاهل بالمقصود أن يبقى متفكراً في لفظٍ لا يعرف معناه، متأثراً بما لا يدري عن فائدته ومنتهاه.

سابعاً: قول الرازي: "فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: هذه الألفاظ غير معلومة. قوله: "لو جاز ذلك لجاز التكلم مع العربي بلغة الزنج" قلنا: ولم لا يجوز ذلك؟ وبيانه أن الله تعالى تكلم بالمشكاة وهو بلسان الحبشة، والسجيل والإستبرق فارسيان".[٢٧] ويجاب عن ذلك بأن هذه الكلمات وغيرها مما تكلمت به العرب وفهموا معناه فأصبح من كلامهم ولو كان أصله غير عربي.

ولا يخفى أن هذه المآخذ والإيرادات ليست هي على القول ذاته بقدر ما هي على ما أورده الرازي من حجج زعم أنها لأصحاب هذا القول.

ومن المفسرين من حاول بيان مراد أصحاب هذا الرأي بما يدفع عنهم القول بوجود مالا يفيد في القرآن ومن هؤلاء البيضاوي حيث قال: "وقيل: إنه سرٌّ استأثر الله بعلمه، وقد روي عن الخلفاء الأربعة وغيرهم من الصحابة ما يقرب منه، ولعلهم أرادوا أنها أسرار بين الله تعالى ورسوله ورموز لم يقصد بها إفهام غيره إذ يبعد الخطاب بما لا يفيد".[٢٨]

وقال صاحب التفسير الواضح: ".... فقال جماعة بعد البحث وطول الفكر: هذا مما استأثر الله بعلمه فهو من المتشابه الذي نؤمن به على أنه من عند الله والله أعلم. وأعلم أنه أمر مفهوم عند النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه خوطب به. وهو أشبه ما يكون بالشيفرة بين الله ورسوله".[٢٩]

ولا ريب أن هذا يفتح الباب أمام التفسيرات الباطنية التي تدعي معرفة تلك الرموز وفك تلك الشفرات، ومن هذه الخزعبلات ما ذكره عبدالمنعم شقرف في قوله: "تواترت الأقوال عن علي بن أبي طالب أنه كان على علم بأسرار القرآن من الحروف المقطعة بأوائل السور، وأن أبناءه وحفدته من أئمة البيت كان عندهم علم ذلك، وقد أثر عنهم قولهم: "إن الحروف المتقطعات أسرار بين الله ورسوله، ولم يقصد بها اهتمام غيره وغير الراسخين في العلم من رسوله وذريته. والخطاب بالحروف المفردة سنة الأحباب في سنن المحاب، فهو سرٌّ الحبيب إلى الحبيب، بحيث لا يطلع عليه الرقيب".[٣٠]

ولا يخفى على الباحث ما في هذا الكلام من الخطل وما يحويه من الباطل والزلل، وأي تواتر هذا الذي ثبت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في

(٢٧) مفاتيح الغيب (٨/٢).

(٢٨) أنوار التنزيل (١٥/١).

(٢٩) التفسير الواضح (١٢/١).

(٣٠) فواتح سور القرآن ص (٢٢).

شأن معرفة أسرار تلك الأحرف المقطعة؟! والثابت عن علي رضي الله عنه أنه لا يعلم شيئاً من الوحي إلا ما في كتاب الله تعالى، فقد روي البخاري عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قلت لعليّ رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: والذي خلق الحبةَ وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقلُ، وفكاكُ الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.[٣١] فأين ما يشير إلى معرفة تلك الأسرار والرموز في هذا الكلام؟!

وقد رجح هذا القول – أنها من المتشابه الذي يسكت عنه ولا يتعرض لمعناه – من المعاصرين كل من: الشيخ عبدالرحمن السعدي،[٣٢] والشيخ أبو بكر الجزائري،[٣٣] والشيخ محمد محمود حجازي،[٣٤] والدكتور شوقي ضيف،[٣٥] وحسن يونس حسن عبدو،[٣٦] ومحمد مصطفى أبو العلا،[٣٧] وأحمد بن عبدالرحمن القاسم[٣٨] وغيرهم.

(٣١) تيسير الكريم الرحمن (١٣/١). والحديث الذي أشار إليه أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب فكاك الأسير برقم ٣٠٤٧.
(٣٢) تيسير الكريم الرحمن (٣١/١).
(٣٣) أيسر التفاسير (١٧/١).
(٣٤) التفسير الواضح ص (١٣).
(٣٥) الوجيز في تفسير القرآن ص (٧).
(٣٦) القول المبين في تفسير سورة يس ص (٢٤، ٢٥).
(٣٧) نور الإيمان في تفسير القرآن ص (٤١، ٤٢).
(٣٨) تفسير القرآن بالقرآن والسنة والآثار (٦٢/١).

المبحث الثاني: أنها أسماء لله تعالى أو أنها تدل على الاسم الأعظم

روي ذلك عن علي وابن عباس وابن مسعود وسالم بن عبدالله رضي الله عنهم، والشعبي، وإسماعيل بن عبدالرحمن السدّي وعكرمة.[٣٩]

قال البيضاوي: وقيل: إنها أسماء لله تعالى، ويدلُّ عليه أن علياً كرم الله وجهه كان يقول: يا كهيعص، ويا حم عسق، ولعله أراد: يا منزلهما.[٤٠]

وأخرج ابن جرير والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود قال: "الم" حروف اشتقت من حروف هجاء أسماء الله.[٤١]

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في فواتح السور قال: أسماء من أسماء الله تعالى.

وأخرج ابن أبي شيبة في تفسيره وعبدبن حميد وابن المنذر، عن عامر أنه سئل عن فواتح السور نحو "الم" و "الر" قال: هي أسماء لله مقطعة الهجاء، فإذا وصلتها كانت اسماً من أسماء الله. وروى ابن جرير بسنده عن الشعبي قال: فواتح السور من أسماء الله.

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس في قوله: "الم" قال: ألف مفتاح اسمه الله، ولام مفتاح اسمه لطيف، وميم مفتاح اسمه مجيد.

(٣٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم (٣٢/١، ٣٣)، ابن كثير (٥٣/١)، أضواء البيان (٤/٣). الدر المنثور (٢٢/١).
(٤٠) أنوار التنزيل (١٥/١).
(٤١) جامع البيان (٨٧/١) والأسماء والصفات ص ١٢٠ والدر المنثور (٢٢/١).

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن السدي قال: فواتح السور كلها من أسماء الله.(٤٢)

وقال البغوي: "وقال جماعة: هي معلومة المعاني، فقيل: كلّ حرف منها مفتاح اسم من أسمائه، كما قال ابن عباس في "كهيعص": الكاف من كافي، والهاء من هادي، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق، وقيل في "المص" أنا الله الملك الصادق.(٤٣)

وقد ردَّ هذا القول وغيره الإمام الشوكاني كما سيأتي. ورفضه كذلك الدكتور فهد الرومي . فقال: "... وأبعد من ذلك أن تكون اسماً لله تعالى، فكيف ستفهم الآية ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢]. إذا قيل إن ﴿الٓمٓ﴾ اسم الله تعالى، حيث ستكون العبارة: الله ذلك الكتاب!! وهي عبارة ليس لها معنى صحيح".(٤٤)

ومن الأقوال الواردة في معاني الأحرف المقطعة أنها تدل على الاسم الأعظم

وهذا أيضاً مروي عن علي وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم وسعيد بن جبير والسدي.(٤٥)

(٤٢) جامع البيان (١/٨٧). الدر المنثور (١/٢٢). والأسماء والصفات ص (١٢٠). ومعالم التنزيل (١/٥٨). والقرطبي (١/١٥٥).

(٤٣) معالم التنزيل (١/٥٨).

(٤٤) وجوه التحدي والإعجاز ص (٢٩).

(٤٥) جامع البيان (١/٨٧)، زاد المسير (١/٢٠)، معالم التنزيل (١/٥٩)، الجواهر الحسان (١/٤٦)، ابن كثير (١/٥٣)، القرطبي (١/١٥٥).

فقد روي عن علي بن أبي طالب قال: هي أسماء مقطعة، لو علم الناس تأليفها، علموا اسم الله الذي إذا دعي به أجاب.(٤٦)

وروي عنه وعن ابن عباس أنهما قالا: الحروف المقطعة في القرآن هي اسم الله الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها.(٤٧)

وروى ابن جرير بسنده عن شعبة قال سألت السدي عن "حم" و "طسم" و "الم" فقال: قال ابن عباس: هو اسم الله الأعظم.

وروي عن مرة الهمداني قال: قال عبدالله: فذكر نحوه.(٤٨)

وعن سعيد بن جبير قال: هي أسماء الله تعالى مقطعة، لو علم الناس تأليفها لعلموا اسم الله الأعظم، ألا ترى أنك تقول: ﴿الر﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿ن﴾ فتكون الرحمن، وكذلك سائرها، إلا أنا لا نقدر على وصلها.(٤٩)

المبحث الثالث: أنها تدل على أسماء الله تعالى وصفاته

قال أبو السعود في تفسيره: "وقيل: كل حرف منها إشارة إلى اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته تعالى، وقيل: إنها صفات الأفعال: الألف:

(٤٦) زاد المسير (١/٢٠).

(٤٧) الدر المنثور (١/٥٤) والمحرر الوجيز (١/٨٢)، القرطبي (١/١٥٥).

(٤٨) جامع البيان (١/٨٧).

(٤٩) معالم التنزيل (١/٥٩)، ولباب التأويل (١/٢٣).

آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجده وملكه، قاله محمد بن كعب القرظي.(٥٠)

قال الرازي وهو يعدد الأقوال في الأحرف المقطعة: "السادس: بعضها يدل على أسماء الذات، وبعضها يدلّ على أسماء الصفات. قال ابن عباس في "آلم" أنا الله أعلم. وفي "المص": أنا الله أعلم وأفصل. وفي "آلر": أنا الله أرى. وهذه رواية أبي صالح وسعيد بن جبير عنه.

السابع: كل واحدٍ منها يدل على صفات الأفعال، فالألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجده، قاله محمد بن كعب القرظي وقال الربيع بن أنس: ما منها حرف إلا في ذكر آلائه ونعمائه".(٥١)

وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في: "آلم" قال: أنا الله أعلم. قال أبو محمد: وكذا فسره سعيد بن جبير والضحاك.(٥٢)

وقال ابن كثير: "وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدي عن أبي مالك".(٥٣)

ونقل الماوردي هذا عن ابن مسعود وسعيد بن جبير.(٥٤)

قال السمعاني: فكلُّ حرف يدلّ على معنى، فالألف دليل قوله: أنا، واللام دليل قوله: الله، والميم دليل قوله: أعلم. وكذا قال في أمثاله، فقال في: ﴿المص﴾: أنا الله أعلم وأفصل، وفي: ﴿المر﴾: أنا الله أعلم وأرى، وفي: ﴿آلر﴾: أنا الله أرى.(٥٥)

وقد ذكر هذا القول أيضاً ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" ورأى أنه جارٍعلى عادة العرب في الاختصار فقال: "وكان بعضهم يجعلها حروفاً مأخوذة من صفات الله تعالى، يجتمع بها في المفتتح الواحد صفات كثيرة كقول ابن عباس في ﴿كهيعص﴾: إن الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق. وقال الكلبي: هو كتاب كافٍ هادٍ، حكيم عالم صادق".(٥٦) ثم قال: "وإن كانت حروفاً مأخوذة من صفات الله، فهذا فن من اختصار العرب، وقلّما تفعل العرب شيئاً في الكلام المتصل الكثير، إلا فعلت مثله في الحرف الواحد المنقطع".(٥٧) ثم توسع – رحمه الله – في الاستدلال لهذا من كلام العرب، ثم ذكر بعضاً من معاني تلك الحروف فقال: "ولم نزل نسمع على ألسنة الناس: الألف آلاء الله، والباء بهاء الله، والجيم جمال الله، والميم مجد الله، فكأنا إذا قلنا: ﴿حم﴾ دللنا بالحاء على حليم وبالميم على مجيد، وهذا تمثيل أردت أن أريك به مكان الإمكان، وعلى هذا سائر الحروف".(٥٨)

وقد شرح ابن جرير الطبري هذا الرأي وما سبقه واستدلَّ له من كلام العرب فقال: "وأما الذين قالوا: ذلك حروف مقطعة، بعضها من أسماء الله عزَّ وجلَّ،

---

(٥٠) أبو السعود (٢١/١). وانظر تفسير ابن أبي حاتم (٢٣/١) حيث أسنده إلى أبي العالية والدر المنثور (٥٤/١) حيث نسبه إلى الربيع بن أنس وعزاه إلى عبد بن حميد.

(٥١) مفاتيح الغيب (٦/٢).

(٥٢) تفسير ابن أبي حاتم (٣٢/١).

(٥٣) تفسير ابن كثير (٥٣/١).

(٥٤) النكت والعيون (٦٤/١).

(٥٥) تفسير السمعاني (٤١/١) وانظر الجواهر الحسان (٤٦/١).

(٥٦) تأويل مشكل القرآن ص (٢٩٩) وذكر ذلك أبو بكر السجستاني في نزهة القلوب ص (٥٨).

(٥٧) المصدر السابق نفسه، ص (٣٠٢).

(٥٨) المصدر السابق ص (٣٠٩، ٣١٠).

وبعضها من صفاته، ولكل حرف من ذلك معنى غير معنى الحرف الآخر، فإنهم نحوا بتأويلهم نحو قول الشاعر:

قلنـــا لها قفي قالـــت قـــاف

لا تحســـبي أنا نســـينا الإيجاف

يعني بقوله: قالت: قاف: قالت: قد وقفت، فدلّت بإظهار القاف من وقفت على مرادها من تمام الكلمة التي هي وقفت، فعرفوا قوله: ﴿آلم﴾ وما أشبه ذلك إلى نحو هذا المعنى. فقال بعضهم: الألف ألف أنا، واللام لام الله، والميم ميم أعلم، وكل حرف منها دالّ على كلمة تامة. قالوا: فجملة هذه الحروف المقطعة إذا ظهر مع كل حرف منهن تمام حروف الكلمة: أنا الله أعلم.

قالوا: وكذلك سائر جميع ما في أوائل سور القرآن من ذلك. فعلى هذا المعنى وبهذا التأويل قالوا: ومستفيض ظاهر في كلام العرب أن ينقص المتكلم منهم من الكلمة الأحرف إذا كان فيما بقي دلالة على ما حذف منها، ويزيد فيها ما ليس منها إذا لم تكن الزيادة ملبسة معناها على سامعها، كحذفهم في النقص في الترخيم من حارث الثاء فيقولون: يا حارِ ومن مالك الكاف فيقولون: يا مال وما أشبه ذلك وكقول راجزهم:

ما للظليم عالٍ كيـف لا يا ينقُـدُ عنه جِلـده إذا يا

كأنه أراد أن يقول: إذا يفعل كذا وكذا، فاكتفى بالياء من يفعل. وكما قال آخر منهم:

بالخير خيرات وإن شرًّا فا يريد: فشرًّ

ولاأريد الـــشرَّ إلا أن تا

يريد: إلا أن تشاء، فاكتفى بالتاء والفاء في الكلمـــتين جميعاً من ســـائر حروفهما.[٥٩]

المبحث الرابع: أنها أسماء لله تعالى ولغير الله

ذكر ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن الجوزي في تفسيره[٦٠] والقرطبي في تفسيره[٦١] وصديق حسن خان في فتح البيان.[٦٢]

قال ابن عطية: وقال ابن جبير عن ابن عباس: هي حروف كل واحد منها إما أن يكون من اسم من أسماء الله، وإما من نعمة من نعمه، وإما من اسم ملك من ملائكته، أو نبي من أنبيائه.[٦٣]

وذكر الرازي هذا القول ونسبه للضحاك.[٦٤]

وقال أبو السعود: "وقيل الألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم، أي أنزل الله الكتاب بواسطة جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام.[٦٥]

قال ابن الجوزي: فإن قيل: إذا كان قد تنوول من كل اسم حرفه الأول اكتفاءً به، فلم أخذت اللام من جبريل وهي آخر الاسم؟

فالجواب: أن مبتدأ القرآن من الله تعالى، فدلَّ على ذلك بابتداء أول حرف من اسمه، وجبريل انختم

---

(٥٩) جامع البيان (١/٩٠، ٩١).

(٦٠) زاد المسير (١/٢٢).

(٦١) الجامع (١/١٥٥).

(٦٢) فتح البيان (١/٦٦).

(٦٣) المحرر الوجيز (١/٨٢).

(٦٤) مفاتيح الغيب (٢/٦).

(٦٥) تفسير أبي السعود (١/٢١).

به التنزيل والإقراء، فتنوول من اسمه نهاية حروفه، و "محمد" مبتدأ في الإقراء، فتنوول أول حرف فيه"[٦٦]

ولا يخفى أن هذا الكلام وأمثاله عارٍ عن أية حجة شرعية أو لغوية، فلا ينبغي الالتفات إليه.

وقد ردّ الدكتور صبحي الصالح كلَّ هذه الآراء السابقة فقال: "ولا يخفى على أحدٍ ما في هذه الآراء كلها من التخرصات والظنون: فقد قيل في كلّ مما ذكرنا أقوال مختلفة يذهب فيها الباحثون مذاهب شتى.

روي عن ابن عباس نفسه في ﴿كهيعص﴾ كافٍ هادٍ أمين عالم صادق. وروي عنه: الكاف من الملك، والهاء من الله، والياء والعين من العزيز، والصاد من المصدر، وروي عنه فيها أيضاً: كبير هاد أمين عزيز صادق. وقال سواه في هذه الفاتحة ذاتها أقوالاً تشبه أقواله المتعددة تارة وتخالفها في زيادة ونقص تارة أخرى.

وحكى الكرماني في "عجائبه" أن الضحاك يرى أن معنى ﴿آلر﴾ أنا الله أعلم وأرفع. على حين يضم إليها ابن عباس ﴿حم﴾ و ﴿ن﴾ فتصير في رأيه حروف ﴿الرحمن﴾ مفرقة على سورٍ مختلفة.

أما ﴿آلمص﴾ فتارة يروى أن معناها: أنا الله الصادق، وتارة تدل على اسم الله المصوّر، وأحياناً تومئ إلى ثلاثة أسماء مختلفة؛ فالألف من الله، والميم من الرحمن، والصاد من الصمد.... ومن المؤكد أن مثل هذه التخرصات في تفسير أوائل السور لا تتناهى، ولا تقف عند حد، وما هي إلا تأويلات شخصية مردّها هوى كل مفسّر وميله. فلماذا تكون القاف مثلاً الحرف الأول من اسم الله القاهر، لا من اسمه القدوس، أو القدير أو القوي؟

ولماذا تدلّ العين على العليم لا على العزيز؟

والنون على النور لا على الناصر؟ والصاد على الصادق لا على الصمد؟

ومن أين لنا أن ﴿آلم﴾ هي الأحرف البارزة في ﴿الرحمن﴾ لا في ﴿الرحيم﴾ ولا في قولهم المشهور: اللهم؟"[٦٧]

إننا مطالبون بتمحيص تلك الأقوال والتأكد أولاً من صحة نسبتها إلى من نسبت إليه، وبخاصة تلك الأقوال المتضارية الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره من الصحابة، فليس من شك أن أكثر الوارد في ذلك لا يصح، بل هو بغير سند أصلاً، وإنما يأخذه المفسرون هكذا أحدهم عن الآخر، ومن غير الطبيعي أن يكون لابن عباس رضي الله عنهما آراء مختلفة في قضية واحدة، بل في معنى حرف واحد، وتكون كل هذه الآراء صحيحة ثابتة عنه رضي الله عنه.

وقد ردَّ الشوكاني هذا القول وما سبقه من الأقوال التي ترى في هذه الأحرف اختصارات لكلمات معروفة على عادة العرب في الاختصار فقال: "... فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله عزَّ وجلَّ، فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط، فإنه إن كان تفسيره لها بما فسرها به راجعاً إلى لغة العرب وعلومها فهو كذب بحت، فإن العرب لم يتكلموا بشيء من ذلك، وإذا سمعه السامع منهم كان معدوداً

(٦٦) زاد المسير (١/ ٢٢).

(٦٧) مباحث في علوم القرآن (٢٣٩-٢٤١).

عنده من الرطانة. ولا ينافي ذلك أنهم قد يقتصرون على أحرف أو حروف من الكلمة التي يريدون النطق بها، فإنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تقدمه ما يدل عليه ويفيد معناه، بحيث لا يلتبس على سامعه... ومن هذا القبيل ما يقع منهم من الترخيم. وأين هذه الفواتح الواقعة في أوائل السور من هذا؟[٦٨]

المبحث الخامس: أنها أسماء لسور القرآن

وهذا مروي عن زيد بن أسلم ومجاهد وقتادة وابنه والحسن، وأبي فاختة سعيد بن علاقة مولى أم هانئ.[٦٩] وقيل إنه قول الخليل بن أحمد وسيبويه.[٧٠]

فقد روى ابن جرير بسنده عن عبدالله بن وهب قال: سألت عبدالرحمن بن زيد ابن أسلم عن قول الله ﴿آلم، ذلك الكتاب﴾ و ﴿آلم، تنزيل﴾ و ﴿المر، تلك﴾ فقال: قال أبي: إنما هي أسماء للسور.[٧١]

قال البيضاوي: "وقيل: هي أسماء للسور وعليه إطباق الأكثر، سميت بها إشعاراً بأنها كلمات معروفة التركيب، فلو لم تكن وحياً من الله تعالى لم تتساقط مقدرتهم دون معارضتها، واستدلّ عليه بأنها لو لم تكن مفهمة كان الخطاب بها كالخطاب بالمهمل والتكلم بالزنجي مع العربي، ولم يكن القرآن بأسره بياناً وهدى، ولما أمكن التحدي به وإن كانت مفهمة: فإما أن يراد بها السور التي هي مستهلها على أنها لألقابها أو غير ذلك، والثاني باطل، لأنه إما أن يكون المراد ما وضعت له في لغة العرب فظاهر أنه ليس كذلك أو غيره وهو باطل لأن القرآن نزل على لغتهم لقوله تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ فلا يحمل على ما ليس في لغتهم."[٧٢]

وقال ابن كثير: "قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء للسور، قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: وعليه إطباق الأكثر، ونقل عن سيبويه أنه نصَّ عليه، ويعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿آلم﴾ السجدة، و ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: ١]"[٧٣] وقال الواحدي: "ويروى عن الحسن أنه قال: ﴿آلم﴾ وسائر حروف التهجي في القرآن: أسماء للسور وعلى هذا القول إذا قال القائل: قرأت ﴿آلمص﴾ عرف السامع أنه قرأ السورة التي افتتحت بـ ﴿آلمص﴾."[٧٤]

وقد ناقش الزمخشري هذا القول من أوجه كثيرة، وردَّ على كثير من الاعتراضات التي أثيرت حوله، ومن ذلك قوله: "فإن قلت: فما معنى تسمية السور بهذه الألفاظ خاصة؟ قلت: كأن المعنى في ذلك

---

(٦٨) فتح القدير (١/٣٠).

(٦٩) جامع البيان (١/٨٧). زاد المسير(١/٢١). الوسيط (١/٧٦). القرطبي (١/١٥٦). ابن كثير (١/٥٣)، فتح البيان (١/٦٦)، المحرر الوجيز (١/٨٢) أضواء البيان (٣/٣).

(٧٠) تفسير أبي السعود (٢/٢١).

(٧١) جامع البيان (١/٨٧).

(٧٢) أنوار التنزيل (١/١٤).

(٧٣) تفسير ابن كثير (١/٥٣) وانظر الكشاف (١/٢١). والحديث الذي أشار إليه متفق عليه رواه البخاري في كتاب الجمعة باب ما يُقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة رقم ٨٤٢ ومسلم في كتاب الجمعة باب ما يقرأ في يوم الجمعة رقم ١٤٥٥.

(٧٤) الوسيط (١/٧٦).

الإشعار بأن الفرقان ليس إلا كَلماً عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ، كما قال عز من قائل: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢].

فإن قلت: فما بالها مكتوب في المصحف على صور الحروف أنفسها لا على صور أساميها؟ قلت: لأن الكلم لما كانت مركبة عن ذوات الحروف، واستمرت العادة متى تُهجيت ومتى قيل للكاتب: أكتب كيت وكيت أن يلفظ بالأسماء وتقع في الكتابة الحروف أنفسها، عمل على تلك الشاكلة المألوفة في كتابة هذه الفواتح. وأيضاً فإن شهرة أمرها، وإقامة ألسن الأسود والأحمر لها، وأن اللافظ بها غير متهجّاة لا يحلى بطائلٍ منها، وأن بعضها مفرد لا يخطر ببال غير ما هو عليه من مورده: أمنت وقوع اللبس فيها. وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي بني عليها علم الخط والهجاء، ثم ما عاد ذلك بضير ولا نقصان، لاستقامة اللفظ وبقاء الحفظ، وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف".[٧٥]

ثم ذكر الزمخشري اعتراضين آخرين فقال: "... إن القرآن إنما نزل بلسان العرب مصبوباً في أساليبهم واستعمالاتهم، والعرب لم تتجاوز ما سمّوا به مجموع اسمين، ولم يسم أحد منهم بمجموع ثلاثة أسماء وأربعة وخمسة. والقول بأنها أسماء السور حقيقة يخرج إلى ما ليس في لغة العرب ويؤدي أيضاً إلى صيرورة الاسم والمسمى واحداً.

ثم أجاب عن ذلك بقوله: "وللمجيب عن الاعتراضين على الوجه الأول أن يقول: التسمية بثلاثة أسماء فصاعداً مستنكرة لعمري وخروج عن كلام العرب، ولكن إذا جعلت اسماً واحداً على طريقة " حَضرموت" فأما غير مركبة منثورة نثر أسماء العدد فلا استنكار فيها، لأنها من باب التسمية بما حقه أن يحكى حكاية كما سموا: بتأبط شرًّا، وبرق نحره، وشاب قرناها، وكما لو سمي بزيد منطلق، أو بيت شعر، وناهيك بتسوية سيبويه بين التسمية بالجملة والبيت من الشعر، وبين التسمية بطائفة من أسماء حروف المعجم دلالة قاطعة على صحة ذلك.

وأما تسمية السورة كلها بفاتحتها، فليست بتصيير الاسم والمسمى واحداً، لأنها تسمية مؤلّف بمفرده، والمؤلف غير المفرد، ألا ترى أنهم جعلوا اسم الحرف مؤلفاً منه ومن حرفين مضمومين إليه، كقولهم: صاد، فلم يكن من جعل الاسم والمسمى واحداً، حيث كان الاسم مؤلفاً والمسمى مفرداً."[٧٦]

وقد لخص أبو السعود ما قاله الزمخشري وزاد عليه فقال: " أما كونها أسماء للسور المصدرةبها، وعليه إجماع الأكثر، وإليه ذهب الخليل وسيبويه، قالوا: سميت بها إيذاناً بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ، فيكون فيه إيماء إلى الإعجاز والتحدي على سبيل الإيقاظ، فلولا أنه وحي من الله عزَّ وجلَّ لما عجزوا عن معارضته".[٧٧] وذكر كلاماً آخر مشابهاً لما قاله الزمخشري.

وقد استدلَّ أصحاب هذا القول بقول قاتل محمد السجاد بن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما

---

(٧٥) الكشاف (١/ ٢٦، ٢٧).

(٧٦) الكشاف (١/ ٢٨). وانظر أنوار التنزيل (١/ ١٥).

(٧٧) تفسير أبي السعود (١/ ٢١).

يوم الجمل وهو شريح بن أبي أوفى العبسي كما ذكره البخاري في صحيحه في أول سورة المؤمن: [٧٨]

يذكرني حاميم والرمح شاجر

فهلا تلا حاميم قبل التقدم

قال الشنقيطي "فقوله: يذكرني "حاميم"، بإعراب "حاميم" إعراب مالا ينصرف فيه الدلالة على ما ذكرنا من أنه اسم للسورة".[٧٩]

وهناك اعتراض على هذا الرأي وهو أن المقصود من تسمية الشيء هو إزالة الاشتباه بغيره، وقد وجدنا سوراً كثيرة افتتحت بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿حمٓ﴾ فهذا مما ينافي كون هذه الأحرف أسماء لهذه السور.

وقد أجاب ابن قتيبة على هذا الاعتراض فقال: " وإن كان قد يقع بعضها مثل ﴿حمٓ﴾ و ﴿آلمٓ﴾ لعدة سور، فإن الفصل قد يقع بأن تقول: حم السجدة، وآلم البقرة، كما يقع الوفاق في الأسماء، فتدل بالإضافات وأسماء الآباء والكنى".[٨٠]

وثمة اعتراضات أخرى ذكرها الرازي وأجاب عنها وهي:

١- لو كانت هذه الألفاظ أسماء للسور لوجب أن يعلم ذلك بالتواتر، لأن هذه الأسماء ليست على قوانين أسماء العرب، والأمور العجيبة تتوفر الدواعي على نقلها لا سيما فيما لا يتعلق بإخفائه رغبة أو رهبة، ولو توفرت الدواعي على نقلها لصار ذلك معلوماً بالتواتر وارتفع الخلاف فيه فلما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنها ليست من أسماء السور.

٢- أنها لو كانت أسماء هذه السور لوجب اشتهار هذه السور بها لا بسائر الأسماء، لكنها إنما اشتهرت بسائر الأسماء كقولهم: سورة البقرة وسورة آل عمران.

٣- هذه الألفاظ داخلة في السورة وجزء منها، وجزء الشيء مقدم على الشيء بالرتبة، واسم الشيء متأخر عن الشيء بالرتبة، فلو جعلناها اسماً للسورة لزم التقدم والتأخر معاً وهو محال.

٤- لو كان كذلك لوجب ألاّ تخلو سورة من سور القرآن من اسم على هذا الوجه ومعلوم أنه غير حاصل.[٨١]

وقد أجاب الرازي عن هذه المعارضات كما يلي:

١- أن تسمية السورة بلفظة معينة ليست من الأمور العظام، فجاز ألا يبلغ في الشهرة إلى حدّ التواتر.

٢- أنه لا يبعد أن يصير اللقب أكثر شهرة من الاسم فكذا ههنا.

٣- أن الاسم لفظ دالّ على أمر مستقل بنفسه من غير دلالة على زمانه المعين، ولفظ الاسم كذلك، فيكون الاسم اسماً لنفسه، فإذا جاز ذلك، فلم لا يجوز أن يكون جزء الشيء اسماً له.

---

(٧٨) ذكره البخاري في صحيحه معلقاً في كتاب التفسير باب تفسير سورة المؤمن. وانظر تخريج الأثر والتعليق عليه في= = فتح الباري ٥٥٤/٨ وتخريج الأحاديث والآثار للزيلعي (٣٣/١).

(٧٩) أضواء البيان (٤/٣).

(٨٠) تأويل مشكل القرآن ص (٣٠٠).

(٨١) انظر: مفاتيح الغيب (٩/٢).

٤- أن وضع الاسم إنما يكون بحسب الحكمة، ولا يبعد أن تقتضي الحكمة وضع الاسم لبعض السور دون بعض.[٨٢]

المبحث السادس: أنها أسماء للقرآن

وهذا مروي عن ابن عباس وقتادة ومجاهد وابن جريج والكلبي والسدي.[٨٣]

فقد أخرج عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ الٓمٓ ﴾ قال: اسم من أسماء القرآن.[٨٤]

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ الٓمٓ ﴾ قال: اسم من أسماء القرآن.[٨٥]

وذكر القرطبي عن ابن عباس في قوله تعالى: (ن) قال: اسم من أسماء القرآن[٨٦] وأخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ من أسماء القرآن.[٨٧]

قال ابن جرير: " فأما الذين قالوا: ﴿ الٓمٓ ﴾ اسم من أسماء القرآن، فلقولهم ذلك وجهان: أحدهما: أن يكونوا أرادوا أن ﴿ الٓمٓ ﴾ اسم للقرآن كما الفرقان اسم له، وإذا كان معنى قائل ذلك كذلك، كان تأويل قوله ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ على معنى القسم، كأنه قال: والقرآن هذا الكتاب لا ريب فيه.

والآخر منهما أن يكونوا أرادوا أنه اسم من أسماء السورة التي تعرف به سائر الأشياء بأسمائهاالتي هي لها أمارات تعرف بها، فيفهم السامع من القائل يقول قرآت اليوم ﴿الٓمٓصٓ﴾ و ﴿نٓ﴾ أي السورة التي قرأها من سور القرآن.[٨٨]

وقد رجح هذا الوجه ابن كثير فقال: " ولعلَّ هذا يرجع إلى معنى قول عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم من أسماء السورة، فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون ﴿الٓمٓصٓ﴾ اسماً للقرآن كله، لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت: ﴿الٓمٓصٓ﴾ إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن والله أعلم".[٨٩]

وقد رفض الدكتور فهد الرومي هذا القول ورآه غير صحيح: " فلو كان المراد بها اسماً من أسماء القرآن، لكان المناسب أن لا يذكر اسم القرآن بعدها، وإنما يذكر وصفه، لأن في ذلك تكراراً للاسم، فلو كانت ﴿ الٓمٓ ﴾ مثلاً اسماً للقرآن، لكان المعنى: " القرآن ذلك الكتاب" وفي هذا تكرار للمسمى. والقول أنها أسماء للقرآن يقتضي أن تكون الآية هكذا " آلم ذلك لا ريب فيه" وكذا قوله تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ

(٨٢) المصدر السابق (١٠/٢).

(٨٣) انظر جامع البيان (٨٧/١) وابن أبي حاتم (٣٣/١) وابن كثير (٥٣/١) ومفاتيح الغيب (٦/٢)، ومعالم التنزيل (٥٩/١)، والنكت والعيون (٦٣/١). والمحرر الوجيز (٨٢/١).

(٨٤) جامع البيان (٨٧/١) وتفسير عبدالرازق (٣٩/١)، و (٢٢٥/٢). والدر المنثور (٢٢/١) وابن أبي حاتم (٣٣/١).

(٨٥) جامع البيان (٨٧/١) والدر المنثور (٢٢/١). وابن أبي حاتم (٣٣/١).

(٨٦) القرطبي (١٢/١٧).

(٨٧) جامع البيان (٨٧/١).

(٨٨) جامع البيان (٨٩/١، ٩٠).

(٨٩) تفسير ابن كثير (٥٣/١).

ﭐلْمَجِيدِ ۝﴾ [ق: ١]. يقتضي أن تكون: " ق المجيد" ولما لم يصحّ هذا بطل ذاك."(٩٠)

المبحث السابع: أنها أقسام

وهذا مروي عن ابن عباس وعكرمة وقتادة وعبدالرحمن بن زيد والضحاك والحسن البصري والكلبي.(٩١)

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله: ﴿آلم﴾ و ﴿المص﴾، و ﴿آلر﴾ و ﴿المر﴾ و ﴿كهيعص﴾ و ﴿طه﴾ و ﴿طسم﴾ و ﴿طسٓ﴾ و ﴿يس﴾ و﴿ص﴾ و ﴿حم﴾ و ﴿ق﴾ و ﴿ن﴾ قال: هو قسم اسمه الله وهو من أسماء الله.(٩٢)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال: ﴿آلم﴾ قسم.(٩٣)

وقال الأخفش: إنما أقسم الله بهذه الحروف لشرفها وفضلها، لأنها مبادئ، ومباني أسمائه الحسنى.(٩٤)

وذكر ذلك أبو السعود في تفسيره.(٩٥)

وقال ابن قتيبة: " وإنما أقسم الله بحروف المعجم لشرفها وفضلها، ولأنها مباني كتبه المنزلة بالألسنة المختلفة، ومباني أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأصول كلام الأمم، بها يتعارفون، ويذكرون الله ويوحّدون.

وقد أقسم الله في كتابه بالفجر، والطور، وبالعصر، وبالتين والزيتون... وأقسم بالقلم إعظاماً لما يسطرون.

ووقع القسم بها في أكثر السور على القرآن فقال: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [سورة البقرة: ١] كأنه قال: وحروف المعجم لهو الكتاب لا ريب فيه.

و﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران: ١- ٢] أي وحروف المعجم لهو الله لا إله إلا هو ﴿ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [آل عمران: ٢- ٣]. و ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١- ٢] أي وحروف المعجم لهو كتاب أنزل إليك ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ٢] و ﴿ يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [يس، ١- ٢]. و﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص: ١]. و﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] كله أقسام.(٩٦)

وقد تساءل البعض فقال: إذا كانت أقساماً فلماذا أقسم الله تعالى ببعض الحروف دون بعض، ولم يقسم بها جميعاً؟

وأجاب عن ذلك ابن قتيبة فقال: " وإن كانت أقساماً، فيجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ أقسم بالحروف المقطعة كلّها، واقتصر على ذكر بعضها من ذكر

---

(٩٠) وجوه التحدي والإعجاز ص (٢٨، ٢٩).

(٩١) انظر جامع البيان (٨٧/١) وابن أبي حاتم (٢٣/١) والدر المنثور (٢٢/١) وزاد المسير (٢٠/١) وابن كثير (٥٣/١)، والنكت والعيون (٦٤/١).

(٩٢) جامع البيان (٨٧/١) والدر المنثور (٢٢/١).

(٩٣) جامع البيان (٨٨/١) وابن أبي حاتم (٢٣/١) والدرر المنثور (٢٢/١).

(٩٤) معالم التنزيل (٥٩/١).

(٩٥) تفسير أبي السعود (٢١/١).

(٩٦) تأويل مشكل القرآن ص (٣٠٠).

جميعها، فقال: ﴿ الٓمٓ ﴾ وهو يريد جميع الحروف المقطعة، كما يقول القائل: تعلمت (أ ب ت ث) وهو لا يريد تعلم هذه الأربعة الأحرف دون غيرها من الثمانية والعشرين، ولكنه لّماطال أن يذكرها كلها، اجتزأ بذكر بعضها. ولو قال: تعلمت "حاء طاء صاد" لدلَّ أيضاً على حروف المعجم، كما دلَّ بالقول الأول، إلا أن الناس يدلون بأوائل الأشياء عليها، فيقولون: قرأت (الحمد لله) يريدون فاتحة الكتاب، فيسمونها بأول حرف منها، هذا الأكثر وربما دلّوا بغير الأول أيضاً، أنشد الفراء:

لما رأيت أنها في حُطّي أخذت منها بقرونٍ شُمطِ

يريد في "أبي جاد" فدّل بـ "حُطي" كما دلّ غيره بـ "أبي جاد".(٩٧)

وقد ذكر القرطبي اعتراضين على هذا القول وأجاب عنهما فقال: "وردَّ بعض العلماء هذا القول فقال: لا يصح أن يكون قسماً، لأن القسم معقود على حروف مثل: إنّ، وقد، ولقد، وما؛ ولم يوجد ههنا حرف من هذه الحروف فلا يكون يميناً.

والجواب أن يقال: موضع القسم قوله تعالى ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ فلو أن إنساناً حلف فقال: والله هذا الكتاب لا ريب فيه لكان الكلام سديداً وتكون "لا" جواب القسم، فثبت أن قول الكلبي وما روي عن ابن عباس سديد صحيح.

فإن قيل: ما الحكمة في القسم من الله تعالى، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين: مصدق ومكذّب، فالمصدّق يصدّق بغير قسم، والمكذب لا يصدّق مع القسم؟ قيل له: القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده.(٩٨)

ومع هذه الاعتراضات والأجوبة عنها يبقى هناك أسئلة أخرى أو اعتراضات أخرى على هذا الرأي تحتاج إلى أجوبة ومن ذلك:

أولاً: أنه لو كان المراد من تلك الحروف القسم فسوف يكون هناك جمع بين قسمين على مقسم عليه واحد، والعرب تكره ذلك في كلامها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝ ﴾ وقوله: ﴿ يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ ﴾ وقوله: ﴿ صٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝ ﴾ وقوله: ﴿ نٓ ۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝ ﴾ وقوله: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ ﴾.

ثانياً: أن هذه الحروف المقطعة غير موضوعة في لغة العرب لإفادة القسم، وليس في كلام العرب ما يفيد ذلك، فلا يجوز استعمالها فيه.

المبحث الثامن: أنها حروف تدلُّ على الحوادث وذلك بحسب حساب الجمل

قال ابن عطية: "وقال قوم: هي حسابٌ أبي جاد" لتدلّ على مدة ملة محمد صلى الله عليه وسلم كما ورد في حديث حُيي بن أخطب، وهو قول أبي العالية رُفيع وغيره.(٩٩)

---

(٩٧) تأويل مشكل القرآن ص (٣٠١).

(٩٨) الجامع (١٥٦/١).

(٩٩) المحرر الوجيز (٨٢/١). وانظر جامع البيان (٩٢/١)، النكت والعيون (٦٤/١) تفسير العز بن عبدالسلام (٩٣/١)، =

وذكر عبدالرحمن الثعالبي في تفسيره أن السهيلي مال إليه في الروض الأنف.[١٠٠]

وقال صاحب فتح البيان: " وقال بعضهم: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون. والمعنى: أن الله الواحد أنزل ثلاثين جزءاً من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بعدما بلغ أربعين سنة التي بعثه عندها إلى الخلق".[١٠١]

وذكره الرازي من قول أبي العالية أن كل حروف منها في مدة أقوام وآجال آخرين.[١٠٢]

وأما حديث حيي بن أخطب الذي أشار إليه ابن عطية فهو ما رواه ابن إسحاق والبخاري في التاريخ الكبير وابن جرير عن ابن عباس عن جابر بن عبدالله بن رئاب قال: مرَّ أبو ياسر بن أخطب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة، ١- ٢]، فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجالٍ من يهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله -عزَّ وجلَّ- عليه ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ فقالوا: أنت سمعته؟ قال: نعم. فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد! ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بلى" فقالوا: أجاءك بهذا جبريل من عند الله؟ قال: نعم. قالوا: لقد بعث الله جلَّ ثناؤه قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقال حيي بن أخطب – وأقبل على من كان معه فقال لهم: " الألف واحدة"، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فهذه إحدى وسبعون سنة. فقال لهم: أتدخلون في دين نبيّ إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد! هل مع هذا غيره؟ قال: " نعم " قال: ماذا؟ قال: ﴿آلر﴾ قال: هذا أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فقال: هل مع هذا غيره يا محمد؟ قال: "نعم": ﴿آلمر﴾ قال: فهذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة. ثم قال: قد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أعطيتَ أم كثيراً، ثم قاموا عنه. فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب: ما يدريكم لعلّه قد جمع هذا كله لمحمد: إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، ومائتا وإحدى وثلاثون، ومائتا وإحدى وسبعون، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون فقالوا: لقد تشابه علينا أمره ويزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران، ٧].[١٠٣]

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: إن اليهود كانوا يجدون محمداً وأمته: إن محمداً مبعوث ولا يدرون ما مدة أمة محمد، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه

= مفاتيح الغيب (٧/٢)، فتح البيان (١٦/١) تفسير ابن كثير (٥٦/١).

(١٠٠) الجواهر الحسان (٤٦/١).

(١٠١) فتح البيان (٦٦/١).

(١٠٢) مفاتيح الغيب (٧/٢).

(١٠٣) جامع البيان (٩٣/١).

وسلم، وأنزل ﴿ آلم ﴾ قالوا: قد كنا نعلم أن هذه الأمة مبعوثة. وكنا لا ندري كم مدتها، فإن كان محمد صادقاً فهو نبي هذه الأمة، قد بين لنا كم مدة محمد، لأن ﴿آلم﴾ في حساب جملنا إحدى وسبعون سنة، فما نصنع بدين إنما هو واحد وسبعون سنة. فلما نزلت ﴿الر﴾ وكانت في حساب جملهم مائتي سنة وواحداً وثلاثين سنة فقالوا: هذا الآن مائتان وواحد وثلاثون سنة وواحدة وسبعون. قيل: ثم أنزل ﴿ المر ﴾ فكان في حساب جملهم مائتي سنة وواحدة وسبعين سنة في نحو هذا من صدور السور فقالوا: قد التبس علينا أمره.[١٠٤]

وهذا القول لا يصحّ، وقد ردّه كثير من المفسرين، وحديث حيي بن أخطب الذي ذكره ابن عباس لا يدل على هذا القول، لأن اليهود — وهم أصحاب هذه الطريقة في الحساب — تحيروا في الأخير ولم يدروا عن مدة بقاء هذه الأمة، وحتى لو توصلوا في ذلك إلى رأي قاطع، فلا يجوز لنا الاعتماد على أقوال يهود في تفسير القرآن العظيم، وبخاصة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقرهم على ما زعموا.

وكذلك فإن هذا الحديث منكر لا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم لأن مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو ذاهب الحديث متهم بالكذب[١٠٥] وقد ضعف هذا الحديث ابن كثير في تفسيره[١٠٦] والشوكاني في "فتح القدير"[١٠٧] والسيوطي في "الدر المنثور".[١٠٨]

(١٠٤) الدر المنثور (٢٣/١).

(١٠٥) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر (٥٦٩/٣).

(١٠٦) تفسير ابن كثير (٥٦/١).

(١٠٧) فتح القدير (٣١/٢).

(١٠٨) الدر المنثور (٢٣/١).

وقد توسع بعض العلماء في هذا الحساب، واعتمدوا عليه في إثبات الوقائع والحوادث، وتمسكت به بعض الفرق في إثبات أنها على الحق، ما دعا إلى التشديد في إنكار هذه الطريقة والنهي عنها. وفي ذلك يقول الدكتور صبحي الصالح: "وأدخل تلك الآراء في معنى الغموض قول من عدَّ هذه الحروف على "حساب الجمل" ليستنبط منها مدة بقاء الأمة الإسلامية، أو التنبيه على كرامة شخص أو شيعة معينة.

فها هو ذا السهيلي يقول: لعل عدد الحروف التي في أوائل السور مع حذف المكرر للإشارة إلى بقاء هذه الأمة. وها هو ذا الخويبي يروي أن بعض الأئمة استخرج، من قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ [الروم: ١- ٢]. أن بيت المقدس يفتحه المسلمون في سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة، ووقع كما قال.

وهذا النوع من الاستخراج الحسابي يعرف باسم "عدّ أبي جاد" وقد شدد العلماء في إنكاره والزجر عنه. وابن حجر العسقلاني يعتبره باطلاً لا يجوز الاعتماد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه الزجر عن عدّ "أبي جاد" والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر، وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة".[١٠٩]

المبحث التاسع: أنها تدلُّ على معان شتى

وقد روي ذلك عن أبي العالية والربيع بن أنس ونصره ابن جرير الطبري. فقد روى ابن أبي حاتم عن أبي العالية وابن جرير عن الربيع في قوله تعالى:

(١٠٩) مباحث في علوم القرآن ص (٢٣٧، ٢٣٨).

﴿ الٓمٓ ﴾ قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها، ليس منها حرف إلا هو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو في آلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدةِ أقوامٍ وآجالهم. وقال عيسى بن مريم – عليه السلام- : وعجيب ينطقون في أسمائه، ويعيشون في رزقه، فكيف يكفرون. قال: الألف مفتاح اسمه "الله"، واللام مفتاح اسمه "لطيف". والميم مفتاح اسمه "مجيد". والألف آلاء الله، واللام لطفه، والميم مجده. والألف سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة.(١١٠)

وقد ذكر هذا الرأي الماوردي في "النكت والعيون" ولم ينسبه.(١١١) وتبعه في ذلك العز بن عبدالسلام في مختصره على "النكت والعيون".(١١٢)

أما ابن جرير الطبري فقد دافع عن هذا الرأي وانتصر له، فكان من قوله: "والصواب من القول عندي في تأويل مفاتح السور التي هي حروف المعجم: أن الله جلَّ ثناؤه جعلها حروفاً مقطعة، ولم يصل بعضها بعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف، لأنه عزَّ ذكره أراد بلفظه الدلالة بكلّ حرف منه على معانٍ كثيرة لا على معنى واحد، كما قال الربيع بن أنس، وإن كان الربيع قد اقتصر به على معانٍ ثلاثة دون ما زاد عليها.

والصواب في تأويل ذلك عندي، أن كل حرف منه يحوي ما قاله الربيع وما قاله سائر المفسرين غيره فيه.(١١٣)

إلى أن قال ... "لأن الله جل ثناؤه لو أراد بذلك أو بشيء منه الدلالة على معنى واحد مما لا يحتمله ذلك دون سائر المعاني غيره لأبان ذلك لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إبانة غير مشكلة، إذ كان جلَّ ثناؤه إنما أنزل كتابه على رسوله صلى الله عليه وسلم ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وفي تركه صلى الله عليه وسلم إبانة ذلك أنه مراد به من وجوه تأويله البعض دون البعض أوضح الدليل على أنه مراد به جميع وجوهه التي هو لها محتمل، إذ لم يكن مستحيلاً في العقل وجه منها أن يكون من تأويله ومعناه، كما كان غير مستحيل اجتماع المعاني الكثيرة للكلمة الواحدة باللفظ الواحد في كلام واحد".(١١٤)

غير أن الإمام ابن كثير – رحمه الله – يبدو أنه لم يرتض هذا التأويل، فبعد أن ذكر مجمل كلام الطبري قال: "هذا حاصل كلامه موجهاً، ولكن ليس كما ذكره أبو العالية، فإن أبا العالية زعم أن الحرف دلَّ على هذا وعلى هذا معاً، ولفظه الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح إنما دلَّ في القرآن في كل موطن على معنى واحد دلَّ عليه سياق الكلام، فأما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم.(١١٥)

ونقد ابن كثير لقول أبي العالية والربيع بن أنس الذي نصره ابن جرير قوي لوضوح حجته.

---

(١١٠) ابن أبي حاتم (٣٣/١)، وابن جرير (٨٨/١).

(١١١) النكت والعيون (٦٤/١).

(١١٢) تفسير القرآن للعز بن عبدالسلام (٩٣/١).

(١١٣) جامع البيان (٩٢/١).

(١١٤) جامع البيان (٩٣/١، ٩٤).

(١١٥) تفسير ابن كثير (٥٤/١).

الفصل الثاني: أقوال العلماء في حكم وأسرار افتتاح سور القرآن بهذه الأحرف

تمهيد

يخلط بعض الباحثين بين الأقوال الواردة في معاني الأحرف المقطعة في أوائل السور وبين الأقوال الواردة في حكم وأسرار افتتاح السور بها. ويترتب على ذلك أن يُنسب لبعض العلماء أكثر من قول في هذه المسألة، مع أن قوله واحد في معنى هذه الأحرف لكنه اجتهد في تلمس حكم وأسرار لافتتاح سور معينة بأحرف معينة فعدّ بعض الباحثين ذلك قولاً آخر له، ومن هنا فقد رأيت أن أفرد أقوال العلماء في حكم وأسرار افتتاح بعض سور القرآن بالأحرف المقطعة بفصل مستقل جاء في سبعة مباحث.

المبحث الأول: أنها للتحدي والإعجاز

وهذا الرأي ذهب إليه كثير من أهل اللغة والمفسرين والعلماء قديماً وحديثاً منهم: المبرد، والفرّاء، والخليل، وأبو علي الفارسي، وقطرب والزجاج، وابن تيمية، وأبو الليث السمرقندي، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، والراغب، والحافظ المزي، وابن كثير، وابن عاشور، ورشيد رضا، ومحمود شلتوت، وسيد قطب، وغيرهم كثير.(١١٦)

قال القرطبي: "وقال قطرب والفرّاء: هي إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم، فيكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج عن كلامهم".(١١٧)

وأشار الزمخشري إلى هذا الوجه من التأويل وهو: "أن يكون ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد، كالإيقاظ وقرع العصا لمن تُحدّي بالقرآن وبغرابة نظمه، وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو – وقد عجزوا عنه عن آخرهم – كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر مَعْجَزَتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم الحرّاص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز، ولم يبلغ من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي برّت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحدَّ الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء؛ إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدر، وهذا القول من القوة والخلاقة بالقبول بمنزل".(١١٨)

وقال الخازن: "وقيل: إن الله تعالى لمّا تحدّاهم بقوله: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣] وفي آية: ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [هود، ١٣]. فعجزوا عنه أنزل هذه الأحرف، ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الأحرف، وأنتم قادرون عليها، فكان يجب أن تأتوا

---

(١١٦) ذكر ذلك الدكتور فهد الرومي في "وجوه التحدي والإعجاز" ص (٢٥). وسيأتي تفصيل هذه الأقوال في هذا البحث.

(١١٧) الجامع (١/١٥٥).

(١١٨) الكشاف (١/٢٧، ٢٨). وذكر هذا الكلام النسفي في تفسيره (١/٩).

بمثله، فلماعجزتم عنه، دلَّ ذلك على أنه من عند الله لا من عند البشر.[١١٩]

وذكر أبو السعود هذا القول وأشار إلى أنه قول أهل التحقيق.[١٢٠]

وقال الراغب: "ونسب تعالى التنزيل إلى الحروف تنبيهاً أنه منها، وإن عجزتم عن الإتيان بمثله، دلالة لكم أنه كلام الله دون كلام الخلق".[١٢١]

وقال ابن الجوزي: "فإن قيل: فقد علموا أنه حروف، فما الفائدة من إعلامهم بهذا"؟

فالجواب أنه نبه بذلك على إعجازه، فكأنه قال: هو من هذه الحروف التي تؤلفون منها كلامكم، فما بالكم تعجزون عن معارضته؟ فإذا عجزتم، فاعلموا أنه ليس من قول محمد عليه السلام".[١٢٢]

وذكر مثل ذلك الماوردي في النكت والعيون.[١٢٣]

ونقل ابن عطية قول قطرب وغيره قال: "هي إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول للعرب: إنما تحديتكم بنظم من هذه الحروف التي عرفتم. فقوله: ﴿ الٓمٓ ﴾ بمنزلة قولك: أ، ب، ت، ث؛ لتدل بها على التسعة والعشرين حرفا".[١٢٤]

وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا القول: "وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المِزّي، وحكاه لي عن ابن تيمية... قلت: ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة، ولهذا يقول تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ ﴾ [البقرة: ٢]، ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ [آل عمران ١- ٣]، ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ [الأعراف: ١- ٢]، ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ ﴾ [إبراهيم، ١]، ﴿ الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [السجدة، ١- ٢]، ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصلت ١- ٢]، ﴿ حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [الشورى، ١- ٣]، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم".[١٢٥]

وقد رجح هذا القول أيضاً العلامة الشنقيطي بدلالة الاستقراء فقال: "أما القول الذي يدلُّ استقراء القرآن على رجحانه فهو أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من

(١١٩) لباب التأويل (١/٢٣).
(١٢٠) تفسير أبي السعود (١/٢١).
(١٢١) تفسير الراغب سورة آل عمران (١/٤٠٣).
(١٢٢) زاد المسير (١/٢١).
(١٢٣) النكت والعيون (١/٦٥).
(١٢٤) المحرر الوجيز (١/٨٢).

(١٢٥) تفسير ابن كثير ص (٥٥، ٥٦).

هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها" ثم أتم - رحمه الله – ذكر الشواهد التي أورد ابن كثير طرفاً منها. فذكر خمساً وعشرين سورة من السور التي ابتدئت بالأحرف المقطعة والتي يتبعها ذكر القرآن وإعجازه وعظمته والانتصار له ثم قال: "وقد قدمنا كلام الأصوليين في الاحتجاج بالاستقراء بما أغنى عن إعادته هنا".(١٢٦)

أما برهان الدين البقاعي فقد ربط بين كون هذه الأحرف المقطعة على النصف من حروف الهجاء وبين تحدي الكفار بهذا فقال: "ولما كان الذي ابتدئت به السور من ذلك شطر حروف المعجم كان كأنه قيل: من زعم أن القرآن ليس من كلام الله فليأخذ الشطر الآخر ويركب عليه كلاماً يعارضه به ".(١٢٧)

وقد فرق الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله – بين الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور وبين معانيها فقال: " ففي قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴾ إشارة إلى أن هذا القرآن العظيم – الذي أعجز أمراء الفصاحة والبلاغة – لم يكن بأحرف خارجة عن الأحرف التي كانوا يتحدثون بها، ومع ذلك أعجزهم، فعجزوا أن يأتوا بمثله، أو سورة من مثله، أو بعشر سور مثله؛ قال الله تعـالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٤]. وهذا يشمل ما يكون به الإعجاز وإن قلّ، وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ [يونس: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾ [هود: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. هذا القرآن الذي أعجزكم أيها البلغاء والفصحاء لم يأت بحروف جديدة حتى تقولوا ليست هذه الحروف معلومة لنا، فلا نستطيع، هذا هو الأصحّ في الحكمة من ذكر الحروف الهجائية في أوائل بعض السور، أما الحروف نفسها فليس لها معنى، لأن الله تعالى أنزل هذا القرآن بلسان عربي مبين، وهذه الحروف الهجائية ليس لها معنى في اللغة العربية".(١٢٨)

وقد أكد الشيخ أن هذه الحروف لا معنى لها في تفسير سورة يس فقال: "... ومنهم من قال: إن معنى ﴿ يسٓ ﴾ يا إنسان، فـ "يـ" حرف نداء على زعمهم و "س" كلمة يعبر بها عن الإنسان. وبعضهم أتى بغير ذلك أيضاً مما لا طائل تحته ولا دليل عليه.

لكن يبقى النظر: هل نقول كما قال المؤلـــف:(١٢٩) "الله أعلم بما أراد" في جميع الحروف الهجائية التي ابتُدئت بها السور؟ أو نقول: إنه لا معنى لها بمقتضى قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥].

فإن مقتضى اللسان العربي المبين أن هذه الحروف ليس لها معنى، فإذا حكمنا بهذه القضية العامة ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ على كل كلمة أو حرف في

---

(١٢٦) أضواء البيان (٣/٥- ٧).

(١٢٧) نظم الدرر (١/٣٠).

(١٢٨) أحكام القرآن الكريم (١/٤٢، ٤٣).

(١٢٩) يقصد صاحب تفسير الجلالين.

القرآن الكريم، فإننا نعلم أن ﴿يس﴾ ليس لها معنى بمقتضى اللسان العربي المبين: "يـ" ما لها معنى، حرف هجاء. "س" ما لها معنى، أيضاً حرف هجاء. وهذا القول ذكره ابن كثير عن مجاهد – رحمه الله- ، وهو قول قوي. ويشهد له الآية التي استشهدتُ بها.

إذن نقول: لا معنى لهذه الحروف، فيرد علينا إشكال إذا قلنا: لا معنى لها، كيف يأتي الله عزَّ وجلَّ في كتابه العظيم بكلامٍ لغوٍ لا معنى له؟!

والجواب على هذا أن يقال: إن له مغزىً عظيماً هو: أنكم أيها العرب الذين عجزتم عن معارضة القرآن والإتيان بمثله عجزتم عن ذلك لا لأن هذا القرآن أتى بحروف جديدة أو كلمات جديدة، بل هو من الكلمات التي تكوّنون بها كلامكم، ولهذا قلَّ أن تجد سورة مبدوءة بهذه الحروف الهجائية إلا وبعدها ذكر القرآن، مما يدُلُّ على أن هذا هو المراد بها".[١٣٠]

والقول بأن هذه الحروف لا معنى لها، لم أجد من صَرح به من أهل العلم، والمروي عن مجاهد رحمه الله، أنها فواتح، أو حروف هجاء موضوع دون تعرضٍ للمعنى. ولذلك صرح الدكتور فهد الرومي بأن "القائلين بهذا – أي بالتحدي والإعجاز – لم يثبتوا لها معنى ولم ينفوه".[١٣١] وأئمة اللغة لم يصرح أحدٌ منهم بأنه لا معنى لهافي نفسها، ولكن منهم من ذكر المعنى، ومنهم من قال لا ندري ما أراد الله تعالى بها.

فالمبرد يرى أنها للتنبيه بمنزلة "ها" في التنبيه.[١٣٢]

وأبو عبيدة يرى أنها افتتاح كلام أي بمنزله "يا" في النداء.[١٣٣]

والزجاج يرى أن كل حرف منها يؤدي إلى معنى.[١٣٤]

والنحاس يقول: "الله تعالى أعلم بما أراد".[١٣٥]

والعكبري يرى أن كل واحدٍ من هذه الحروف اسمٌ[١٣٦] بل إن ابن كثير وهو من الذين رجحوا القول بالإعجاز والتحدي آيد القول بأن هذه الحروف لها معنى فقال: "ومن ههنا لخص بعضهم في هذا المقام كلاماً فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدىً، ومن قال من الجهلة: إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صحَّ لنافيها عن المعصوم شيء قلنابه، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل، فعليه اتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين".[١٣٧]

ومن أدلة أصحاب هذاالقول – وهو القول بالتحدي والإعجاز – ما ذكرناه من ذكر القرآن والتحدي به وبيان إعجازه وعظمته بعد ذكر هذه الفواتح مباشرة.

---

(١٣٠) تفسير سورة (يس) ص (٩، ١٠).
(١٣١) وجوه التحدي والإعجاز ص (٣٠).
(١٣٢) معاني القرآن الكريم للنحاس (٧٦/١).
(١٣٣) معاني القرآن للنحاس (٧٦/١).
(١٣٤) معاني القرآن للنحاس (٧٧/١).
(١٣٥) معاني القرآن للنحاس (١٠/١).
(١٣٦) إملاء ما منَّ به الرحمن (١٠/١).
(١٣٧) تفسير ابن كثير (٥٥/١).

ومن أدلتهم كذلك أن ورود هذه الأحرف المقطعة في أوائل السور المكية ما يشير إلى التحدي.

ومن أدلتهم كذلك ما أشار إليه رشيد رضا بأن عدم إعرابها يرجح أن حكمة افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن والإشارة إلى إعجازه.(١٣٨)

ولا يخفى أن مثل هذه الأدلة وغيرها لا تعتبر أدلة قاطعة على هذا القول، لأن أصحاب الأقوال الأخرى يمكن أن يردوا عليها بنفس الطريقة، فذكر القرآن وبيان إعجازه وعظمته يمكن أن يكون دليلاً لمن جعل هذه الحروف أسماءً لله عزَّ وجلَّ وهو منزل القرآن وذلك لبيان فضله على عباده بإنزال هذا الكتاب الذي أخرجهم به من الظلمات إلى النور وهداهم إلى الصراط المستقيم.

وكذلك فإن هناك بعض السور افتتحت بهذه الأحرف، ولم يكن هناك ذكر للقرآن بعدها كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ [مريم ١، ٢] وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت ١، ٢]. وقوله تعالى في السورة التي بعدها: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم: ١-٣]. وقوله تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم: ١].

وأما الدليل الثاني الذي استدلوا به فهو أيضاً منتقض بسورتي البقرة وآل عمران، وهما سورتان مدنيتان افتتحتا بالأحرف المقطعة.

وأما الدليل الثالث فهو كسا بقيه غير مسلّم به، والعلماء مختلفون في إعرابها كما قال القرطبي: "واختلف: هل لها محلّ من الإعراب؟ فقيل: لا، لأنها ليست أسماء متمكنة ولا أفعالاً مضارعة، وإنما هي بمنزلة حروف التهجي، فهي محكيّة، هذا مذهب الخليل وسيبويه.

ومن قال: إنها أسماء للسور فموضعها عنده الرفع على أنها عنده خبر ابتداء مضمر، أي: هذه ﴿ الٓمٓ ﴾، في موضع نصب، كما تقول: هذه سورة البقرة، أو تكون رفعاً على الابتداء والخبر: ذلك، كما تقول: زيد ذلك الرجل. وقال ابن كيسان النحوي: ﴿ الٓمٓ ﴾ في موضع نصب، كما تقول: أقرأ ﴿ الٓمٓ ﴾ وقيل: في موضع خفض بالقسم لقول ابن عباس: إنها أقسام أقسم الله بها".(١٣٩)

وعلى الرغم من أن القول بالتحدي والإعجاز قد استحسنه كثير من العلماء والأئمة قديماً وحديثاً إلا أنه لم يعدم من يعارضه أو يرفضه، ومن هؤلاء الإمام الشوكاني الذي قال: " هذا التدقيق لا يأتي بفائدة يعتد بها، وبيانه أنه إذا كان المراد منه إلزام الحجة والتبكيت كما قال، فهذا متيسّر بأن يقال لهم: هذا القرآن هو من الحروف التي تتكلمون بها ليس هو من حروف مغايرة لها، فيكون هذا تبكيتاً وإلزاماً يفهمه كل سامع منهم من دون إلغاز وتعمية وتفريق لهذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضاً مما لا يفهمه أحدٌ من السامعين، ولا يتعقّل

---

(١٣٨) انظر: وجوه التحدي والإعجاز ص ٢٦.

(١٣٩) الجامع (١/١٥٦، ١٥٧).

شيئاً منه، فضلاً عن أن يكون تبكيتاً له وإلزاماً للحجة أيًّا كان، فإن ذلك هو أمر وراء الفهم مترتب عليه، ولم يفهم السامع هذا، ولا ذكر أهل العلم عن فرد من أفراد الجاهلية الذين وقع التحدي لهم بالقرآن أنه بلغ فهمه إلى بعض هذا فضلاً عن كله".(١٤٠)

وهذا الردّ أيضاً يمكن أن يرد عليه بعض الاعتراضات منها:

١- أن البلاغة قد تستدعي ترك الخطاب المباشر واللجوء إلى الخطاب غير المباشر، وهذا كثير في القرآن، فأيهما أبلغ في القول أن أقول للسامع ﴿الٓمٓرۚ﴾ ويفهم من ذلك - ولو من طرفٍ خفي أو بعد سؤال ومشقة – أن هذه الحروف هي من جنس ما تتكلمون به، فإن كنتم صادقين فأتوا بكلام مثله، أو أن يذكر لهم هذا الكلام بصورة مباشرة؟ لا شك أن الأسلوب الأول هو الأبلغ.

٢- قد تقدم أن ذكر بعض حروف الهجاء ينوب عنها جميعاً كما تقول مثلاً: علمت ولدي أ ب ت ث ويفهم السامع أنك علمته الحروف الأبجدية كلها، فليس شرطاً أن تكون الحروف كلها في موضع واحدٍ حتى يفهم السامع المراد، وهذا يردّ قول الشوكاني: "وتفريق هذه الحروف في فواتح تسع وعشرين سورة، فإن هذا مع ما فيه من التطويل الذي لا يستوفيه سامعه إلا بسماع جميع هذه الفواتح، هو أيضاً لا يفهمه أحد من السامعين، ولا يتعقل شيئاً منه فضلاً عن أن يكون تبكيتاً له، وإلزاماً للحجة.

٣- إذا كان المشركون لم يفهموا هذا المعنى، فكيف لم يعترضوا على النبي صلى الله عليه وسلم، ويقولوا له: لقد جئت بكلام غير مفهوم؟ فهذا يدلُّ على أنهم فهموا من هذه الحروف معنىً واضحاً.

ويأتي في سياق تلك الردود والاعتراضات على هذا الرأي ذلك الاعتراض الغريب من الدكتور رمضان عبد التواب فقد رفض هذا الرأي ورآه ينقصه الدليل، لكنه أفسد ذلك بقوله: إن سياق الكلام في الأماكن التي ذكرت فيها هذه الرموز لا يفهم منه شيئ من ذلك!!(١٤١)

ونقول له رداً على كلامه: إذن فلماذا ذكر القرآن بعد هذه الأحرف في خمس وعشرين موضعاً من المواضع التسعة والعشرين؟! وقد ذهب إلى القول بأنها للتحدي والإعجاز من المعاصرين كل من: محمد الأمين الشنقيطي،(١٤٢) وسيد قطب،(١٤٣) وعبدالقادر شيبة الحمد،(١٤٤) والدكتور أمير عبدالعزيز، والدكتور وهبة الزحيلي،(١٤٥) والدكتور محمد سيد طنطاوي،(١٤٦) وعبدالحميد كشك،(١٤٧) وأحمد بن عبدالرحمن القاسم مع كونها أيضاً أداة لجذب المشركين إلى سماع القرآن.(١٤٨)

---

(١٤٠) فتح القدير (١/٣٠).

(١٤١) فواتح سور القرآن ص (٣٢).
(١٤٢) أضواء البيان (٣/٣).
(١٤٣) الظلال (١/٣٨).
(١٤٤) تهذيب التفسير (١/٢٦- ٢٨).
(١٤٥) التفسيرالمنير (١/٧٣).
(١٤٦) التفسير الوسيط (١/٣٩).
(١٤٧) في رحاب التفسير (١/٨١).
(١٤٨) تفسير القرآن بالقرآن والسنة والآثار (١/٦٢).

المبحث الثاني: أنها لاستفتاح السور أو للفصل بين السور

قال ابن جرير: "وقال بعضهم: الحروف التي هي فواتح السور حروف يستفتح الله بها كلامه. فإن قيل: هل يكون من القرآن ما ليس له معنى؟ فإن معنى هذا أنه افتتح بها ليعلم أن السورة التي قبلها قد انقضت، وأنه قد أخذ في أخرى، فجعل هذا علامة انقطاع ما بينهما، وذلك في كلام العرب، ينشد الرجل منهم الشعر فيقول: "بل" ...

وبلدةٍ ما الإنس من آهالها.

ويقول: "لا بل" ...

ما هاجَ أحزاناً وشجواً قد شجا

و "بل" ليست من البيت، ولا تعدُّ في وزنه، ولكن يقطع بها كلاماً، ويستأنف الآخر.[١٤٩]

وهذا مروي عن مجاهد والحسن وأبي عبيدة والأخفش.[١٥٠]

فقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال: ﴿آلم﴾ و﴿حم﴾ و﴿المص﴾ و﴿ص﴾ فواتح افتتح الله بها القرآن.[١٥١]

قال النحاس: "وأبين هذه الأقوال قول مجاهد الأول أنها فواتح السور وكذلك قول من قال: هي تنبيه".[١٥٢]

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن قال: ﴿آلم﴾ و﴿طسم﴾ فواتح يفتتح الله بها السور.[١٥٣]

وذكر ابن كثير هذا القول ونسبه إلى مجاهد.[١٥٤]

وذكره ابن عطية عن مجاهد ثم قال: " كما يقولون في أول الإنشاء لشهر القصائد: "بل" و"لا بل" نحا هذا النحو أبو عبيدة والأخفش".[١٥٥]

وهذا القول على هذا النحو يعيدنا إلى أن هذه الحروف لا معنى لها في ذاتها، وقد ردّ ذلك الطبري وبين خطأه من وجوه ثلاثة فقال: "وأما الذي زعم من النحويين أن ذلك نظير "بل" في قول المنشد شعراً: "بل"

ما هاج أحزاناً وشجواً قد شجا

وأنه لا معنى له، وإنما هو زيادة في الكلام معناه الطرح فإنه أخطأ من وجوه شتى:

أحدها: أنه وصف الله تعالى ذكره بأنه خاطب العرب بغير ما هو من لغتها، وغير ما هو في لغة أحد من الأدميين، إذ كانت العرب وإن كانت تفتتح أوائل إنشادها ما أنشدت من الشعر ببل، فإنه معلوم منها أنها لم تكن تبتدئ شيئاً من الكلام بـ ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ و﴿المص﴾ بمعنى ابتدائها ذلك ببل. وإذا كان ذلك ليس من ابتدائها، وكان الله جلَّ ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم من القرآن بما يعرفون من لغاتهم، ويستعملون بينهم من منطقهم في جميع آيه، فلا شك أن سبيل ما وضعنا من حروف المعجم التي افتتحت بها أوائل السور التي هن لها فواتح سبيل سائر القرآن في

---

(١٤٩) جامع البيان (١/٨٩).

(١٥٠) انظر جامع البيان (١/٨٧)، وابن أبي حاتم (١/٣٣) والدر المنثور (١/٢٣)، والمحرر الوجيز (١/٨٢).

(١٥١) جامع البيان (١/٨٧)، وابن أبي حاتم (١/٣٣)، والدر المنثور (١/٢٣).

(١٥٢) معاني القرآن للنحاس (١/٧٨).

(١٥٣) الدر المنثور (١/٢٣).

(١٥٤) تفسير ابن كثير (١/٥٣).

(١٥٥) المحرر الوجيز (١/٨٢).

أنه لم يعدل بها عن لغاتهم التي كانوا بها عارفين ولها بينهم في منطقهم مستعملين، لأن ذلك لو كان معدولاً به عن سبيل لغاتهم ومنطقهم، كان خارجاً عن معنى الإبانة التي وصف الله عزَّ وجلَّ بها القرآن، فقال تعالى ذكره: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء:١٩٣- ١٩٥] وأنى يكون مُبيناً ما لا يعقله ولا يفقهه أحد من العالمين في قول قائل هذه المقالة، ولا يعرف في منطق أحدٍ من المخلوقين في قوله.

وفي إخبار الله – جَلَّ ثناؤه – عنه أنه عربي مبين ما يكذب هذه المقالة، وينبئ عنه أن العرب كانوا به عالمين وهو لها مستبين، فذلك أحد أوجه خطئه.

والوجه الثاني من خطئه في ذلك: إضافته إلى الله جلَّ ثناؤه أنه خاطب عباده بما لا فائدة لهم فيه، ولا معنى له من الكلام الذي سواء الخطاب به وترك الخطاب به، وذلك إضافة العبث الذي هو منفي في قول جميع الموحدين عن الله إلى الله تعالى ذكره.

والوجه الثالث من خطئه: أن " بل " في كلام العرب مفهوم تأويلها ومعناها، وأنها تُدخلها في كلامها رجوعاً عن كلام لها قد تقضي كقولهم: ما جاءني أخوك، بل أبوك. وما رأيت عمراً، بل عبدالله، وما أشبه ذلك من الكلام. فأما افتتاحاً لكلامها مبتدأ بمعنى التطويل والحذف من غير أن يدلّ على معنى فذلك مما لا نعلم أحداً ادّعاه من أهل المعرفة بلسان العرب ومنطقها سوى الذي ذكرت قوله".(١٥٦)

وأشار الحافظ ابن كثير إلى أن لهذه الحروف معاني في نفسها وإن جهلها البعض فقال: "... ومن هنا لخص بعضهم في هذا المقام كلاماً فقال: لا شك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدىً، ومن قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبد لا معنى له بالكلية، فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر.

فإن صح لنا فيه من المعصوم شيء قلنا به، وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين، وإنما اختلفوا، فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه إتباعه، وإلا فالوقف حتى يتبين".(١٥٧)

ثم ضعف ابن كثير هذا القول فقال: " فقال بعضهم: إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور، حكاه ابن جرير، وهذا ضعيف، لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة".(١٥٨)

المبحث الثالث: أنها حروف للتنبيه لإسكات الكفار وجذبهم إلى سماع القرآن

وهذا قول ابن روق وقطرب قالا: " إن الكفار لما قالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦] وتواصوا بالإعراض عنه، أراد الله تعالى لما أحبَّ من صلاحهم ونفعهم أن يورد عليهم مالا يعرفونه ليكون ذلك سبباً لإسكاتهم واستماعهم لما يرد عليهم من القرآن، فأنزل الله تعالى عليهم هذه الحروف، فكانوا إذا سمعوها قالوا كالمتعجبين: اسمعوا إلى ما يجيء به محمد!!، فإذا

(١٥٦) جامع البيان (١/٩٥، ٩٦).

(١٥٧) تفسير ابن كثير (١/٥٥).

(١٥٨) المصدر السابق (١/٥٥).

أصْغَوْا هجم عليهم القرآن، فكان ذلك سبباً لاستماعهم وطريقاً إلى انتفاعهم.[١٥٩]

وقد ذكر هذا القول القرطبي ولم ينسبه إلى أحد فقال: " وقال آخرون: بل ابتدئت بذلك أوائل السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين، إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن، حتى إذا استمعوا له، تلي عليهم المؤلف منه".[١٦٠]

وقد ذكر الخويبي – كما حكاه عنه السيوطي في الإتقان – أن التنبيه إنما هو للنبي صلى الله عليه وسلم؛ فقد علم الله تعالى أن نبيّه صلى الله عليه وسلم يكون مشغولاً في بعض الأوقات مع البشر في مصالحهم، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله: ﴿ آلم ﴾ و﴿ الر ﴾ و﴿ حم ﴾، ليسمع النبي صلى الله عليه وسلم صوت جبريل، فيقبل عليه، ويصغي إليه.[١٦١]

وهذا لا يصحّ، لأنه لا دليل عليه، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يشغله عن الوحي شاغل، بل كان يشتاق إلى نزوله ويكره غيبته. وأكثر من ذكر هذا القول رأى أن التنبيه إنما هو للمشركين وليس للنبي صلى الله عليه وسلم. وذكر ابن عطية عن قومٍ أنهم قالوا: " هي تنبيه كـ "يا" في النداء. وقال قوم: روي أن المشركين لما أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها، فيفتحوا أسماعهم فيسمعون القرآن – بعدها فتجب عليهم الحجة".[١٦٢]

وقد ذكر ابن الجوزي هذا القول وفرعه على قولين فقال: "وقال أبو روق عطية بن الحارث الهمداني: كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهر بالقراءة في الصلوات كلها، وكان المشركون يصفقون ويصفّرون، فنزلت هذه الحروف المقطعة، فسمعوها، فبقوا متحيرين.

وقال غيره: إنما خاطبهم بما لا يفهمون ليقبلوا على سماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، أو يكون معلوماً عند المخاطبين، فهذا الكلام يعم جميع الحروف".[١٦٣] ولا ريب أن هذين القولين يرجعان إلى قول واحد، فإنهم لمّا بقوا متحيرين أقبلوا على سماعه فانتفعوا بذلك. وقد ذكر النحاس أن هذا القول وقول مجاهد أنها فواتح السور من أبين الأقوال.[١٦٤]

ولكن تبقى هنا القضية المعضلة وهي: كيف خاطب الله قوماً بما لا يعرفون؟

وقد أجاب الرازي على هذا، وبين أنه غير ممتنع لما وراءه من المصلحة في هداية قوم وإقامة حجة فقال: "واعلم أن بعد هذا المذهب الذي نصرناه بالأقوال التي حكيناها قول قطرب: من أن المشركين قال بعضهم لبعض: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا فِيهِ ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكان إذا تكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول هذه السورة بهذه الألفاظ ما فهموا منها شيئاً، والإنسان حريص على ما منع، فكانوا يُصغون إلى القرآن ويتفكرون

(١٥٩) انظر: جامع البيان (١/٨٩). لباب التأويل (١/٢٣). ابن كثير (١/٥٥)، زاد المسير (١/٢١، ٢٢).

(١٦٠) الجامع لأحكام القرآن (١/٨٩).

(١٦١) انظر الإتقان (٢/١٧).

(١٦٢) المحرر الوجيز (١/٨٢).

(١٦٣) زاد المسير (١/٢١، ٢٢).

(١٦٤) معاني القرآن لأبي جعفر النحاس (١/٧٧).

ويتدبرون في مقاطعه ومطالعه، رجاء أنه ربما جاء كلام يفسر ذلك المبهم، ويوضح ذلك المشكل، فصار ذلك وسيلة إلى أن يصيروا مستمعين للقرآن ومتدبرين في مطالعه ومقاطعه.

والذي يؤكد هذا المذهب أمران:

أحدهما: أن هذه الحروف ما جاءت إلا في أوائل السور، وذلك يوهم أن الغرض ما ذكرنا.

والثاني: أن العلماء قالوا: إن الحكمة في إنزال المتشابهات هي أن المعلل لما علم اشتمال القرآن على المتشابهات فإنه يتأمل القرآن ويجتهد في التفكر فيه على رجاء أنه ربما وجد شيئاً يقوي قوله وينصر مذهبه، فيصير ذلك سبباً لوقوفه على المحكمات المخلصة له عن الضلالات.

فإذا جاز إنزال المتشابهات التي توهم الضلالات لمثل هذا الغرض، فلأن يجوز إنزال هذه الحروف التي لا توهم شيئاً من الخطأ والضلال لمثل هذا الغرض كان أولى.

أقصى ما في الباب أن يقال: لو جاز ذلك فليجز أن يتكلم بالزنجية مع العربي، وأن يتكلم بالهذيان لهذا الغرض، وأيضاً فهذا يقدح في كون القرآن هدىً وبياناً. لكنا نقول: لم لا يجوز أن يقال: إن الله إذا تكلم بالزنجية مع العربي – وكان ذلك متضمناً لمثل هذه المصلحة – فإن ذلك يكون جائزاً.

وتحقيقه: أن الكلام فعل من الأفعال، والداعي إليه قد يكون هو الإفادة، وقد يكون غيرها.

قوله: " إنه يكون هذياناً" قلنا: إن عنيت بالهذيان الفعل الخالي عن المصلحة بالكلية، فليس الأمر كذلك، وإن عنيتَ به الألفاظ الخالية عن الإفادة، فلم قلتَ إن ذلك يقدح في الحكمة إذا كان فيها وجوه أخر من المصلحة سوى هذا الوجه؟

وأما وصف القرآن بكونه هدى وبياناً، فذلك لا ينافي ما قلناه؛ لأنه إذا كان الغرض ما ذكرناه كان استماعها من أعظم وجوه البيان والهدى".(١٦٥)

إلا أن ابن كثير – رحمه الله – قد ضعف هذا القول فقال بعد أن حكاه: " وهو ضعيف، لأنه لو كان كذلك، لكان ذلك في جميع السور.. لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك. ولو كان كذلك أيضاً لا نبغى الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك، ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وآل عمران مدنيتان، ليستا خطاباً للمشركين، فانتقض ما ذكروه بهذه الوجوه".(١٦٦)

وممن رجح هذا القول من المعاصرين محمد رشيد رضا(١٦٧) والدكتور صبحي الصالح.(١٦٨)

وقد مال إلى هذا القول من المعاصرين الشيخ المراغـي،(١٦٩) والشيخ أحمد بن عبدالرحمن القاسم.(١٧٠)

المبحث الرابع: أنها للإعجاز اللغوي

رأى بعض العلماء أن ما ذكر من هذه الفواتح هو نصف حروف الهجاء، وأن هذا النصف يدلُّ على جميع أجناس الحروف وصفاتها، وهذا الأمر لم يتضح إلا بعد زمانٍ طويل من نزول القرآن، وذلك

---

(١٦٥) مفاتيح الغيب (٢/١٠، ١١).

(١٦٦) تفسير ابن كثير (١/٥٥).

(١٦٧) انظر المنار (٨/٢٩٩) و (١/٢٦٨).

(١٦٨) مباحث في علوم القرآن ص (٢٤٥).

(١٦٩) تفسير المراغي (١/٣٩).

(١٧٠) تفسير القرآن بالقرآن والسنة والآثار (١/٦٢).

بعدما ظهرت الدراسات اللغوية التي تعنى بالحروف وتقسيماتها الصوتية وصفاتها ومخارجها.

وقد أشار الطبري إلى ما يشبه هذا القول دون الإشارة إلى وجه الإعجاز فيه فقال: "وأما أهل العربية فأنهم اختلفوا في معنى ذلك، فقال بعضهم: هي حروف من حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً، كما استغني المخبر عمن أخبر عنه أنه من حروف المعجم الثمانية والعشرين بذكر: أ ب ت ث عن ذكر بواقي حروفها التي هي تتمة الثمانية والعشرين".(١٧١)

ومن أوائل من تكلم في هذا الوجه من الإعجاز أبو بكر الباقلاني في كتابه "إعجاز القرآن" فقد ذكر في الوجه الثالث من وجوه إعجاز القرآن أن أحد وجوه الإعجاز هو إتيان القرآن بأنصاف أجناس هذه الحروف التي تحتوي عليها اللغة العربية قبل أن يفطن إليها العلماء بزمانٍ طويل، وهذا الوجه من الإعجاز لا يقدر عليه إلا الله تبارك وتعالى. قال الباقلاني: "وإذا كان القوم الذين قسموا في هذه الحروف هذه الأقسام لأغراضٍ لهم في ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم رأوا مباني اللسان على هذه الجهة، وقد نبّه بما ذكر في أوائل السور على ما لم يذكر على حدّ التصنيف الذي وصفنا، دلَّ على أن وقوعها الموقع الذي يقع التواضع عليه بعد العهد الطويل لا يجوز أن يقع إلا من الله عزَّ وجلَّ، لأن ذلك يجري مجرى علم الغيوب".(١٧٢)

وقد فصّل هذا القول الزمخشري في تفسيره، وذكر أجناس تلك الحروف واستيفائها لصفات جميع حروف الهجاء فقال: "واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عزَّ سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم: أربعة عشر سواء وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون. في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم.

ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. بيان ذلك: أن فيها من المهموسة نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء. ومن المجهورة نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف، والياء والنون.

ومن الشديدة نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف. ومن الرخوة نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون.

ومن المطبقة نصفها: الصاد والطاء. ومن المنفتحة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون. ومن المستعلية نصفها: القاف والصاد والطاء. ومن المنخفضة نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقلة نصفها: القاف والطاء. ثم استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة(١٧٣) بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقّت في كل شيء حكمته وقد علمتَ

(١٧١) جامع البيان (١/ ٨٩).

(١٧٢) إعجاز القرآن ص (٦٩).

(١٧٣) مكثورة: مغلوبة مقهورة.

أن معظم الشيء وجلّه، ينزل منزلته كلّه، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته... ومما يدلُّ على أنه تعمد بالذكر من حروف المعجم أكثرها وقوعاً في تراكيب الكلم: أن الألف واللام لّما تكاثر وقوعهما فيه جاءتا في معظم هذه الفواتح مكرّرتين وهي فواتح سورة البقرة وأل عمران والروم والعنكبوت ولقمان والسجدة والأعراف والرعد ويونس وإبراهيم وهود ويوسف والحجر." [١٧٤]

وذكر ابن كثير ما أورده الطبري عن بعض أهل العربية ثم قال: "قلت" مجموع هذه الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها: أربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: نصّ حكيم قاطع له سرّ وهي نصف الحروف عدداً، والمذكور منها أشرف من المتروك، وبيان ذلك في صناعة التصريف"[١٧٥] ثم ذكر – رحمه الله – ملخصاً لكلام الزمخشري. وابن كثير – رحمه الله – لم يجعل هذا قولاً في تفسير معاني تلك الحروف، وإنما ذكره ضمن الأقوال التي أشارت إلى الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور، مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها.

وقد تلقى بعض المفسرين كلام الزمخشري بالقبول، فساقوه بلفظه أو بمعناه وربما زادوا عليه كلاماً آخر لتأكيد الفكرة ومن هؤلاء البيضاوي في "أنوار التنزيل"[١٧٦] والنسفي في تفسيره[١٧٧] والزركشي في البرهان.[١٧٨]

أما أبو السعود فعلى عادته اختصر الكلام اختصاراً، فقال: ".... كيف لا وقد وردت تلك الفواتح في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، مشتملة على نصفها تقريباً بحيث ينطوي على أنصاف أصنافها تحقيقاً أو تقريباً، كما يتضح عند الفحص والتنقير، حسبما فصّله بعض أفاضل أئمة التفسير." [١٧٩]

وإذا كان بعض المفسرين – كما ذكرنا – قد احتفل بكلام الزمخشري، فساقه مساق الرضى والتأييد، فإن بعضهم لم ير في كلامه كبير فائدة ولا عموم نفع، ومن أبرز هؤلاء محمد بن علي الشوكاني في "فتح القدير" فقد رأى أن "هذا التدقيق لا يأتي بفائدة.... فكون هذه الحروف مشتملة على النصف من جميع الحروف التي تركبت لغة العرب منها، وذلك النصف مشتمل على أنصاف تلك الأنواع من الحروف المتصفة بتلك الأوصاف، هو أمر لا يتعلق به فائدة لجاهليّ، ولا إسلامي، ولا مقرّ، ولا منكر، ولا مُسَلم ولا معارض، ولا يصحّ أن يكون مقصداً من مقاصد الرب سبحانه الذي أنزل كتابه للإرشاد إلى شرائعه والهداية به. وهب أن هذه صناعة عجيبة، ونكتة غريبة، فليس ذلك مما يتصف بفصاحة ولا بلاغة حتى يكون مفيداً أنه كلام بليغ أو فصيح، وذلك لأن هذه الحروف الواقعة في الفواتح ليست من جنس كلام العرب حتى يتصف بهذين الوصفين، وغاية ما هناك أنها من جنس

---

(١٧٤) الكشاف (١/ ٢٩، ٣٠).

(١٧٥) تفسير ابن كثير (١/ ٥٥).

(١٧٦) أنوار التنزيل (١/ ١٣، ١٤).

(١٧٧) تفسير النسفي (١/ ٩).

(١٧٨) البرهان (١/ ١٦٦)

(١٧٩) تفسير أبي السعود (١/ ٢٢).

حروف كلامهم. ولا مدخل لذلك فيما ذكر".(١٨٠)

ولكن هذا التدقيق الذي ذكره الباقلاني والزمخشري وإن كان لم يُفد القرن الذي نزل فيه القرآن لعدم وجود الدراسات اللغوية التي بينت هذا اللون من الإعجاز، إلا أنه أصبح مفيداً لمن تلاهم من قرون بعد وجود تلك الدراسات التي قسمت الحروف إلى أقسام، وجعلت لكل قسم منها صفات معينة، فالقول بأن لا فائدة من ذلك لجاهليّ ولا إسلامي، ولا مقرّ ولا منكر، ولا مسلم ولا معارض، قول غير مستقيم.

أما النقد الحقيقي الذي يمكن أن يوجّه إلى هذا الرأي فهو أن الدراسات اللغوية الحديثة ترى أن هناك خلافاً بين اللغويين أنفسهم في صفات الحروف، فمنهم من يجعل حرفاً من الحروف المجهورة، ويجعل بعضهم نفس الحرف من الحروف المهموسة. وكذلك ذكرت بعض الدراسات أن هذا التقسيم يعتبر مستحيلاً على أي معيار في أغلب التصنيفات الخاصة بصفات الحروف؛ لأن هذه التصنيفات متعددة متنوعة، فمنها ما هو زوجي العدد، ومنها ما هو فردي، ومنها ما هو حرف واحد، ومنها ما هو متميز، ومنها ما هو مندرج في غيره، فكيف يمكن الإتيان بالنصف؟.(١٨١)

وقد أشار الدكتور نصر حامد إلى اختلاف تقسيمات الحروف بين القديم والحديث وإلى تطور نطق بعض الحروف بما يشير إلى صعوبة إيجاد تقسيم متفق عليه بين علماء اللغة جميعاً.(١٨٢)

المبحث الخامس: أنها للإعجاز اللغوي والموضوعي معاً

وهو قول الإمام ابن القيم – رحمه الله- ، وهذا القول يعود إلى الحكمة في ابتداء كل سورة بالأحرف التي ابتدئت بها وليس بغيرها، ومناسبة هذه الحروف لموضوعات السورة التي افتتحت بها، وهذا من باب الإعجاز اللغوي والموضوعي معاً. في القرآن الكريم، إذ قال رحمه الله: " تأمل سرَّ ﴿الٓمٓ﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة؛ فالألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة. وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط المخارج وهي أشدّ الحروف اعتماداً على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم.

وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين، وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية.

فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجاً، فيصير منها تسعة وعشرون حرفاً، عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين، مع تضمنها سرًّا عجيباً وهو: أن الألف البداية، واللام التوسط، والميم النهاية. فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما.

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه: فمشتملة على تخليق العالم وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر.

فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم.

---

(١٨٠) فتح القدير (١/ ٣٠)، وانظر: فتح البيان (١/ ٦٦، ٦٧).

(١٨١) انظر: وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة ص (٤٢، ٤٣).

(١٨٢) انظر فواتح سور القرآن ص (١٨٠، ١٨١).

وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق.(١٨٣)

والسين مهموس، رخو، مستفل، صفيري، منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء. فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.

وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك ﴿ قٓ ﴾ والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، والخلق، وتكرير القول، ومراجعته مراراً، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب، والقرون، والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة.

وسرٌّ آخر وهو أن كلَّ معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح.

وإذا أردتَ زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة ﴿ صٓ ﴾ من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم وقولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا ﴾ [ص: ٥] إلى آخر كلامهم. ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربّه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانياً في شأن بنيه: حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير ﴿ص﴾ وسورة ﴿قٓ﴾ غير حرفها؟!

وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف والله أعلم.(١٨٤) وللبيضاوي إشارة إلى نحو هذا القول دون الإشارة إلى صاحبه، حيث قال: "وقيل: الألف من أقصى الحلق وهو مبدأ المخارج، واللام من طرف اللسان وهو أوسطها، والميم من الشفة، وهو آخرها؛ جمع بينها إيماء أن العبد يكون أول كلامه وأوسطه وآخره ذكر الله تعالى".(١٨٥) وذكر ذلك أيضاً الرازي في تفسيره.(١٨٦) ويبدوا أن ابن القيم – رحمه الله – استفاد من ذلك وتوسع في بيانه.

المبحث السادس: إنها مستودع أسرار القرآن

ذكر هذا القول القرطبي في تفسيره حيث قال: "وروي عن محمد بن عليّ الترمذي أنه قال: إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة، ولا يعرف ذلك إلا نبي أو وليّ، ثم بين ذلك في جميع السورة ليفقه الناس".(١٨٧)

---

(١٨٣) هكذا في الأصل ويبدو أن الصفة الخامسة هي القلقلة.

(١٨٤) بدائع الفوائد (٦٩٢/٣، ٦٩٣)، ويلاحظ أن مثل هذه الاستنباطات ترتبط بوجه ما بالتفسير الإشاري الذي لا يقوم عليه دليل يصح الاحتجاج به.

(١٨٥) أنوار التنزيل (١٥/١).

(١٨٦) مفاتيح الغيب (٨/٢).

(١٨٧) الجامع (١٥٦/١).

ولا ريب أن إنزال الأولياء منزلة الأنبياء في معرفة أسرار تلك الحروف يجرُّ إلى التفسيرات المنكرة التي أنكرها العلماء على الصوفية الذين تكلموا في التفسير بحسب أذواقهم ومواجيدهم لا بحسب قواعد التفسير المعروفة، وفي ذلك يقول الدكتور صبحي الصالح: "ولا ريب أن للصوفية في مجال هذه التفسيرات الباطنية آراء أبعد شطحاً وأغرب لفظاً، وأغمض معنىً، ولا نرى أدلَّ على ذلك من قول الشيخ محيي الدين بن عربي في "الفتوحات المكية" ما خلاصته: اعلم أن مبادئ السور المجهولة لا يعلم حقيقتها إلا أهل الصور المعقولة، فجعلها تبارك وتعالى تسعاً وعشرين سورة، وهو كمال الصورة: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩].

والتاسع والعشرون: القطب الذي قوام الفلك، وهو علة وجوده، وهو سورة آل عمران ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران، ١-٢]. ولولا ذلك لما ثبتت الثمانية والعشرون حرفاً. وجملتها على تكرار الحروف ثمانية وسبعون حرفاً. فالثمانية حقيقة البضع قال صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون"[(١٨٨)] وهذه الحروف ثمانية وسبعون، فلا يكمل عبد أسرار الإيمان حتى يعلم حقائق هذه الحروف في سورها...إلخ".

إلى أن يقول في موضع آخر: "ثم جعل سبحانه هذه الحروف على مراتب، منها موصول، ومنها مقطوع، وليس في كل قطع وصل، فكل وصلٍ يدل على فصل، وليس كل فصل يدل على وصل، والوصل والفصل في الجمع وغير الجمع والفصل وحده في عين الفرق، فما أفرده من هذا فإشارة إلى فناء رسم العبد أزلاً، وما أثبته فإشارة إلى وجود رسم العبودية حالاً، وما جمعه فإشارة إلى الأبد بالموارد التي لا تتناهي. والإفراد للبحر الأبدي، والمثنى للبرزخ المحمدي الإنساني. والألف فيما نحن فيه إشارة إلى التوحيدي، والميم إشارة إلى الملك الذي لا يبيد، واللام بينهما واسطة ليكون بينهما رابطة...إلخ:".

ثم عقب الدكتور صبحي الصالح بقوله: "هذه الشطحات الصوفية تنبيء عن رأي أصحابها خاصة، لأنها تعتمد على أذواقهم ومواجيدهم، وتستمد سريتها من مصطلحاتهم وأسرارهم، فلا يمكن إذن أن تعطي صورة صادقة عن التفسير الإسلامي المعتمد لفواتح السور".[(١٨٩)]

وقريب من هذا ما ذكره الرازي ولم ينسبه إلى أحد: "الألف إشارة إلى مالا بد منه من الاستقامة في أول الأمر، وهو رعاية الشريعة؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠]. واللام إشارة إلى الانحناء الحاصل عند المجاهدات، وهو رعاية الطريقة، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والميم إشارة إلى أن يصير العبد في مقام المحبة، كالدائرة التي يكون نهايتها عين بدايتها وبدايتها عين نهايتها، وذلك إنما يكون بالفناء في الله تعالى بالكلية، وهو مقام الحقيقة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١].[(١٩٠)]

---

(١٨٨) أخرجه مسلم في صحيحه بهذا اللفظ في كتاب الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان. حديث رقم ٥٠.

(١٨٩) مباحث في علوم القرآن ص (٢٣٨، ٢٣٩).

(١٩٠) مفاتيح الغيب (٨/٢).

ولا ريب أن في هذا الكلام من الضلال ما قد يؤدي إلى الكفر والقول بإسقاط التكاليف لأنه جعل رعاية الشريعة إنما تكون في أول الأمر فقط، أما مقام الفناء في الله – على قولهم – لا يحتاج العبد معه إلى رسوم وهي العبادات الظاهرة، وقد يعنون بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام: ٩١]، تلك العبادات من صلاة وصيام وزكاة وغير ذلك، ولا ريب أن كلام الله تعالى ينزه عن مثل هذا الهذيان والضلال.

وللحرالي كلام في تفسير هذه الحروف لا يخرج عن التفسير الصوفي الإشاري المحاط بهالة من المصطلحات الغريبة التي اشتهر بها الصوفية.(١٩١)

المبحث السابع: أنها معجزة دالة على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

فإن التكلم بهذه الحروف وإن كان معتاداً لكل أحدٍ، إلا أن تسمية هذه الحروف بهذه الأسماء لا يعرفه إلا من اشتغل بالتعلم والاستفادة، فلما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام عنها من غير سبق تعلم واستفادة، كان ذلك إخباراً عن الغيب، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكرها ليكون أول ما يُسمع من هذه السورة معجزة دالة على صدقه. ذكر ذلك الزمخشري في الكشاف وأبو السعود في تفسيره، والرازي في مفاتيح الغيب وصديق حسن خان في "فتح البيان" والبيضاوي في "أنوار التنزيل" والنسفي في تفسيره ولم ينسبوه إلى أحد، ويبدو أنهم أخذوه جميعاً عن الزمخشري.(١٩٢)

وهذا يدل على أن هذه الألفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم ما هي إلا أسماء لتلك الحروف، وقد عبر عن ذلك الزمخشري فقال: "اعلم أن الألفاظ التي يتهجى بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة التي منها ركبت الكلم فقولك: ضاد، اسم سمي به "ضه" من ضرب إذا تهجيته، وكذا: راء، باء؛ اسمان لقولك: ره، به ... ثم إني عثرت من جانب الخليل على نصّ في ذلك. قال سيبويه: قال الخليل يوماً – وسأل أصحابه- : كيف تقولون إذا أردتم أن تلفظوا بالكاف التي في لك والباء التي في ضرب؟ فقيل: نقول: باء، كاف، فقال: إنما جئتم بالاسم، ولم تلفظوا بالحرف، وقال: أقول: كه، به".(١٩٣)

وقال أبو السعود: " الألفاظ التي يعبر بها عن حروف المعجم التي من جملتها المقطعات المرقومة في فواتح السور الكريمة أسماء لها، لا ندراجها تحت حدّ الاسم، ويشهد به ما يعتريها من التعريف والتنكير والجمع والتصغير وغير ذلك من خصائص الاسم، وقد نصَّ على ذلك أساطين أئمة العربية، وما وقع في عبارات المتقدمين من التصريح بحرفيتها محمول على المسامحة"(١٩٤) ثم استدلّ بذلك على صدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم.(١٩٥)

---

(١٩١) انظر نظم الدرر (١/٣١).

(١٩٢) انظر الكشاف (١/٢٨، ٢٩)، مفاتيح الغيب (٢/٨)، أبو السعود (١/٢٢)، أنوار التنزيل (١/١٣)، فتح البيان (١/٦٦)، لباب التأويل (١/٢٣)، النسفي (١/٩).

(١٩٣) الكشاف (١/١٩، ٢٠).

(١٩٤) تفسير أبي السعود (١/٢٠). وانظر تفسير النسفي (١/٩).

(١٩٥) تفسير أبي السعود (١/٢٢).

المبحث الثامن: أقوال أخرى

وهناك أقوال أخرى في معنى الأحرف المقطعة في أوائل السور أو حكمتها لم يكتب لها الانتشار. ولم ينقلها غير الآحاد، ولم أجد حولها كلاماً كثيراً. لذا فإنني اكتفي هنا بسياقها على سبيل الاختصار، ومن ذلك:

أولاً: من الأقوال في معاني الأحرف المقطعة

١- قيل: كل حرف منها يشير إلى نعمة من نعم الله، وقيل إلى ملك، وقيل إلى نبي. ذكره الصاوي في حاشيته على الجلالين ولم ينسبه إلى أحد.(١٩٦) وقاله ابن جبير عن ابن عباس كما في المحرر الوجيز.(١٩٧)

٢- أن كل واحدٍ من هذه الحروف يدلُّ على فعلٍ من الأفعال، فالألف معناه: ألفَ الله محمداً فبعثه نبيًّا، واللام: أي لامه الجاحدون. والميم: أي ميم الكافرون: غيظوا وكبتوا بظهور الحق. ذكره الرازي في تفسيره.(١٩٨)

٣- قول أبي بكر التبريزي: "إن الله تعالى علم أن طائفة من هذه الأمة تقول بقدم القرآن. فذكر هذه الحروف تنبيهاً على أن كلامه مؤلف من هذه الحروف، فيجب ألا يكون القرآن قديماً" ذكره الرازي في تفسيره.(١٩٩)

٤- قول القاضي المازري أن "المراد بـ ﴿الٓمٓ﴾ أي ﴿ألمَّ﴾ بكم ذلك الكتاب أي نزل عليكم. والإلمام الزيارة، وإنما قال الله تعالى ذلك، لأن جبريل عليه السلام نزل به نزول الزائر. ذكره الرازي في تفسيره."(٢٠٠)

٥- أنها رموز لكلمات وجمل لها معاني في اللغة الهيروغليفية (المصرية القديمة) وليست من حروف المعجم المعروفة. وصاحب هذا القول هو سعد عبدالمطلب العدل، وقد ألف كتاباً في ذلك أسماه: "الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم".(٢٠١)

ومعنى هذا القول أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون والأجيال المتلاحقة كانوا يجهلون معاني تلك الحروف أو الرموز، لأن أحداً منهم ما كان يعلم عن الهيروغيليفة شيئاً، حتى جاء صاحب هذا القول ليعلم الأمة شيئاً في دينها لم يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه ولا سائر القرون المتقدمة والمتأخرة وهذا لا يقول به عاقل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – "فمن قال عن جبريل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وعن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين والجماعة: أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من معاني هذه الآيات [أي المتشابهات] بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة، وإنما كانوا يقرأون ألفاظاً لا يفهمون لها معنى كما يقرأ الإنسان كلاماً لا يفهم منه شيئاً، فقد كذب على القوم، والنقول المتواترة عنهم تدلّ على نقيض هذا".(٢٠٢)

---

(١٩٦) حاشية الصاوي على الجلالين (١/١٠).

(١٩٧) المحرر الوجيز (١/٨٢).

(١٩٨) مفاتيح الغيب (٢/٧).

(١٩٩) مفاتيح الغيب (٢/٨).

(٢٠٠) نفس المصدر والصفحة.

(٢٠١) لم يكتف صاحب هذا القول بتفسير فواتح السور من الأحرف المقطعة باللغة الهيروغليفية بل إنه تعدى على بعض المفردات القرآنية وفسرها بنفس اللغة كـ ﴿الحطمة﴾ و ﴿عرفات﴾وغيرها.

(٢٠٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧/٤٢٥).

قلت: فكيف إذا ادعى شخص أنه يفهم ما لم يفهمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين ولا الأئمة المعتبرين؟!

ويكفي في بطلان هذا القول أن أحد كبار المتخصصين[٢٠٣] في اللغة المصرية القديمة أنكره واستشنعه ورآه مخالفاً حتى للغة الهيروغليفية التي زعم أنها تفسر القرآن الكريم.

ثانياً: من الأقوال الوارد في الحكمة من الأحرف المقطعة في أوائل السور

١- أنها إمارة قد كان الله تعالى جعلها لأهل الكتاب، أنه سُينزل على محمدٍ كتاباً في أول سورٍ منه حروف مقطعة؛ ذكره ابن عطية في "المحرر الوجيز".[٢٠٤]

٢- وقيل إنها للتعبير بمعنى أن الله تعالى عيَّر عقول الخلق في ابتداء خطابه ليعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلا باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه. ذكره الخازن في "لباب التأويل".[٢٠٥]

٣- أنها للتعليم: قال عبدالعزيز بن يحيى: إن الله تعالى إنما ذكرها لأن في التقدير كأن الله تعالى قال: اسمعوها مقطعة، حتى إذا وردت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك، كما أن الصبيان يتعلمون هذه الحروف أولاً مفردة، ثم يتعلمون المركبات". ذكره الرازي في تفسيره.[٢٠٦]

٤- أنها من قبيل الثناء على الله تعالى. ذكر الرازي أن ابن الجوزي رواه عن ابن عباس.[٢٠٧]

٥- قول الشيخ محمد متولي الشعراوي أنها ذكرت في القرآن كحروف استقلالية لنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم أنا نأخذ حسـنة على كلّ حرف .... فحينا نقرأ ﴿الٓمٓ﴾ ونحن لا نفهم معناها نعرف أن ثواب القرآن على كل حرف نقرؤه سواء فهمناه أم لم نفهمه.[٢٠٨]

الخاتمة

وفيها: خلاصة القول

من خلال دراسة هذا الموضوع، والنظر في أقوال الأئمة والعلماء في معاني الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور؛ يترجح القول بأنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، ولم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته، وذلك مثل وقت قيام الساعة، وظهور الدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى بن مريم وظهور الدابة، وطلوع الشمس من مغربها وكيفية استواء الله على عرشه وغير ذلك. فمعرفة المعنى المراد بالأحرف المقطعة من هذا النوع من المتشابه. أما الحكمة المرادة من إيرادها فمبحث آخر غير هذا.

وقد ترجح لي ذلك بعد البحث للأسباب التالية:

---

(٢٠٣) هو الدكتور عبدالحليم نور الدين أستاذ اللغة المصرية القديمة ورئيس قسم الآثار المصرية بجامعة القاهرة، والأمين العام للمجلس الأعلى للآثار سابقاً. وانظر ردّه على الكتاب والمؤلف في أحد ملاحق الكتاب نفسه ص (١٨٧- ١٩٦).

(٢٠٤) المحرر الوجيز (١/٨٢).

(٢٠٥) لباب التأويل (١/٢٣).

(٢٠٦) نفس المصدر والصفحة.

(٢٠٧) نفس المصدر والصفحة.

(٢٠٨) من خواطر الشيخ حول القرآن الكريم نقلاً عن موقعه على الإنترنت.

أولاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرد عنه شيء في معاني تلك الحروف مع مسيس الحاجة إلى معرفة ذلك وكثرة وروده في القرآن الكريم.

ثانياً: أن هذا القول مرويّ عن الخلفاء الراشدين الأربعة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدي".[٢٠٩]

ثالثاً: أنه قول كثير من أهل العلم من الصحابة والتابعين وغيرهم كابن مسعود والشعبي، وأبي صالح، وسفيان الثوري، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم، والحسين بن الفضل والربيع بن خثيم، وأبي بكر الأنباري وجابر بن عبدالله بن رئاب وأبي حاتم وهود ابن محكم الهواري وقد رجحه ابن حبان والقرطبي والسيوطي وغيرهم كما قدمنا.

رابعاً: أنه القول الأسلم والأبعد عن الكلام في كتاب الله تعالى بغير علم ولا برهان.

خامساً: أنها حروف وليست ألفاظاً محددة المعاني معروفة المباني حتى يسهل معرفة معانيها والبحث في مراد الله منها.

سادساً: أن الذين تكلموا فيها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم لم يتفقوا على شيء، بل كثرت اختلافاتهم وتضاربت آراؤهم، حتى أن الواحد منهم كان ينقل عنه عدة أقوال في الفاتحة الواحدة.

سابعاً: أن ابن عباس رضي الله عنهما وهو من أعظم المفسرين لهذه الأحرف لم يهتد إلى شيء ولذلك ورد عنه أنه قال: عجزت العلماء عن إدراكها.[٢١٠] وروي عنه أيضاً أنها هي المتشابهات.[٢١١]

ثامناً: أن العلماء جميعاً متفقون على أنها من المتشابه، فلم أجد من ذكر أنها من المحكم، أما اختلافهم ففي جواز البحث في معانيها؛ منع ذلك بعضهم كالخلفاء الأربعة، وأجازه البعض كابن عباس وغيره.

تاسعاً: القول بأنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله ينهي ذلك الاختلاف الذي وصل إلى حدّ التناقض والتخبط في تفسير هذه الحروف، ويقطع الطريق على الذين يُحدثون أقوالاً أخرى مبتدعة فيقول أحدهم: إذا كان السابقون اختلفوا في المسألة على عشرين قولاً، فلماذا لا أكون أنا المجتهد الحادي والعشرين؟ وقد نسي هذا القائل أنَّ للاجتهاد شروطاً لا يتوفر فيه بعضها فضلاً عن استيفائها كلها حتى يسمح له بتصدر مقام الاجتهاد.

عاشراً: القول بأنها من المتشابه لا يقدح في كون القرآن نزل بلسانٍ عربي مبين، لهداية الخلق وإرشادهم إلى سواء السبيل، لأن هذا من باب الابتلاء والاختبار؛ ليهلك من هلك عن بينة بردّ هذه الأحرف وإنكارها، ويحيى من حيَّ عن بينة بقبولها والإيمان بأنها من كتاب الله الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [سورة فصلت: ٤٢].

حادي عشر: القول بأنها من المتشابه لا يمنع من أن لها معاني عظيمة، استأثر الله تعالى بعلمها.

(٢٠٩) رواه الإمام أحمد في المسند برقم ١٦٦٩٢ أبو داود كتاب السنة باب في لزوم السنة رقم ٤٦٠٧ والترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة رقم ٢٦٧٦ وابن ماجه في المقدمة باب إتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين رقم ٤٢.

(٢١٠) تفسير أبي السعود (١٢/١).

(٢١١) ذكره عنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤٢٠/١٧).

ثاني عشر: القول بأنها من المتشابه لا يمنع ما ذكره العلماء من حكم في افتتاح بعض السور بهذه الحروف المقطعة.

ومن أبرز العلماء الذين رأيت لهم كلاماً صريحاً في اختيار هذه الأقول وتضعيف ما سواه الإمام الشوكاني – رحمه الله – ، فقد ذكر كلام الزمخشري وردَّ عليه كما قدمنا، وردَّ كذلك القول بالتحدي وقد ذكرت كلامه في ذلك ورددت عليه، ورد كذلك القول بأن هذه الحروف على مذهب العرب في الاختصار والإيجاز وبين أن هذه الحروف ليست من هذا الجنس لأنه لم يتقدمها ما يدلّ عليها ويفيد معناها كما في كلام العرب.

ثم قال – رحمه الله – : "وإذا عرفت هذا فاعلم أن من تكلم في بيان معاني هذه الحروف جازماً بأن ذلك هو ما أراده الله عزَّ وجلَّ، فقد غلط أقبح الغلط، وركب في فهمه ودعواه أعظم الشطط.... وإذا تقرر لك أنه لا يمكن استفادة ما ادعوه من لغة العرب وعلومها، لم يبق حينئذٍ إلا أحد أمرين:

الأول: التفسير بمحض الرأي الذي ورد النهي عنه والوعيد عليه، وأهل العلم أحق الناس بتجنبه والصّد عنه والتنكب عن طريقه، وهم أتقى لله سبحانه وتعالى من أن يجعلوا كتاب الله سبحانه وتعالى ملعبةً لهم يتلاعبون به، ويضعون حماقات أنظارهم وخزعبلات أفكارهم عليه.

الثاني: التفسير بتوقيف عن صاحب الشرع، وهذا هو المهيع الواضح والسبيل القويم، بل الجادة التي ما سواها مردوم والطريقة العامرة التي ما عداها معدوم، فمن وجد شيئاً من هذا فغير ملوم أن يقول بملء فيه ويتكلم بما وصل إليه علمه. ومن لم يبلغه شيء من ذلك فليقل: لا أدري، أو الله أعلم بمراده.

فقد ثبت النهي عن طلب فهم المتشابه، ومحاولة الوقوف على علمه مع كونه ألفاظاً عربية وتراكيب مفهومة، وقد جعل الله تتبع ذلك صنيع الذين في قلوبهم زيغ، [٢١٢] فكيف بما نحن بصدده؟ فإنه ينبغي أن يقال: إنه متشابه المتشابه على فرض أن للفهم إليه سبيلاً ولكلام العرب فيه مدخلاً، فكيف وهو خارج عن ذلك على كلّ تقدير!

.... فإن قلت: هل ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الفواتح شيء يصلح للتمسك به؟

قلت: لا أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم تكلم في شيء من معانيها، بل غاية ما ثبت عنه هو مجرد عدد حروفها ... فإن قلت: هل روي عن الصحابة شيء من ذلك بإسناد متصل بقائله أم ليس إلا ما تقدم من حكاية القرطبي عن ابن عباس وعلي؟

---

(٢١٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الله ذم الزائغين بالجهل وسوء القصد، فإنهم يقصدون المتشابه يبتغون تأويله، ولا يعلم تأويله إلا الراسخون في العلم وليسوا منهم، وهم يقصدون الفتنة، لا يقصدون العلم والحق" ثم ذكر شيخ الإسلام الأقوال في المتشابه وبين أن الراسخين في العلم يعلمون معانيه على جميع الأقوال إلا القول الذي ذكر أن المتشابه هو الحروف المقطعة في أوائل السور، فإنه لم يقطع بمعرفة العلماء له بل قال: "هذه الحروف قد تكلم في معناها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفاً فقد عرف معنى المتشابه، وأن لم يكن معروفاً وهي المتشابه، كان ما سواها معلوم المعنى وهذا المطلوب". مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١٧/٤٠٥، ٤٢٠).

قلت: " قد روى ابن جرير والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات عن ابن مسعود أنه قال: ﴿ الٓمٓ ﴾ حروف اشتقت من حروف اسم الله" ثم ذكر الروايات التي رواها ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس وابن مسعود والربيع بن أنس في تفسير هذه الأحرف، وقد ذكرتها جميعاً في مواضعها. ثم قال: "وقد روي نحو هذه التفاسير عن جماعة من التابعين منهم عكرمة والشعبي والسديّ وقتادة ومجاهد والحسن.

فإن قلت: هل يجوز الاقتداء بأحد من الصحابة قال في تفسير شيء من هذه الفواتح قولاً صح إسناده إليه؟

قلت: لا لما قدّمنا، إلا أن يعلم أنه قال ذلك عن علم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فإن قلت: هذا مما لا مجال للاجتهاد فيه، ولا مدخل للغة العرب، فلم لا يكون له حكم الرفع؟

قلت: تنزيل هذا منزلة المرفوع وإن قال به طائفة من أهل الأصول وغيرهم، فليس مما ينشرح له صدور المنصفين، ولا سيما إذا كان في مثل هذا المقام وهو التفسير لكلام الله سبحانه، فإنه دخول في أعظم الخطر بما لا برهان عليه صحيح إلا مجرد قولهم: إنه يبعد من الصحابي كلّ البعد أن يقول بمحض رأيه فيما لا مجال فيه للاجتهاد، وليس مجرد هذا الاستبعاد مسوّغاً للوقوع في خطر الوعيد الشديد. على أنه يمكن أن يذهب بعض الصحابة إلى تفسير بعض المتشابه كما تجده كثيراً في تفاسيرهم المنقولة عنهم، ويجعل هذه الفواتح من جملة المتشابه.

ثم ههنا مانع آخر وهو أن المروي عن الصحابة في ذلك مختلف متناقض، فإن عملنا بما قاله أحدهم دون الآخر كان تحكماً لا وجه له، وإن عملنا بالجميع كان عملاً بما هو مختلف متناقض، ولا يجوز.

ثم ههنا مانع غير هذا المانع، وهو أنه لو كان شيء لما قالوه مأخوذاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، لا تفقوا عليه، ولم يختلفوا كسائر ما هو مأخوذ عنه، فلما اختلفوا في هذا، علمنا أنه لم يكن مأخوذاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم لو كان عندهم شيء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا لما تركوا حكايته عنه، ورفعه إليه، لا سيما عند اختلافهم، واضطراب أقوالهم في مثل هذا الكلام الذي لا مجال للغة العرب فيه، ولا مدخل لها.

والذي أراه لنفسي، ولكلّ من أحبّ السلامة واقتدى بسلف الأمة: أن لا يتكلم بشيء من ذلك، مع الاعتراف بأن في إنزالها حكمة لله عزَّ وجلَّ، لا تبلغها عقولنا، ولا تهتدي إليها أفهامنا، وإذا انتهيت إلى السلامة في مداك، فلا تجاوزه."(٢١٣)

هذا فيما يتعلق بتفسير المعنى أما الحكمة واللطائف فأرى أن الأمر في ذلك واسع طالما أن القول له ما يؤيده من اللغة أو من الاستقراء أو السياق أو غير ذلك من المرجحات، والقرآن مليء بالحكم واللطائف وفي كل يوم يتضح للعلماء فيه معنى جديد، فهو كالشجرة الطيبة التي ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ [سورة إبراهيم، ٢٥].

---

(٢١٣) فتح القدير (١/٢٩- ٣٢) باختصار.

وقد قال ابن القيم بعد أن ذكر بعض حكم الأحرف المقطعة وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف والله أعلم."(٢١٤)

وقال في موضع آخر: "فمتى لاح لك من هذه الأسرار، وكشف لك عن مكنونها فِكْرٌ، فاشكر الواهب للنعمة، و ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]."(٢١٥)

ومن أصحّ ما ذكره العلماء في هذا السياق كون هذه الأحرف موضوعة للإعجاز والتحدي وقد قال بهذا جمع غفير من أهل العلم قد تقدم ذكرهم، ولا يعترض على ذلك بأن هذا القول لم يقل به صحابي ولا تابعي، لأن هؤلاء كانوا يشتغلون بتفسير المعنى غالباً، وأما الأسرار والحكم واللطائف فقد توسع فيها من جاء بعدهم، وهي ليست تفسيراً لمعاني القرآن، ولم يجزم صاحبها بأنها مراد الله سبحانه، وإنما يقول هذا ما فهمته أنا في سبب افتتاح بعض سور القرآن بالأحرف الهجائية المقطعة.

وللإمام ابن كثير – رحمه الله – نصٌّ يوضح أن هناك فرقاً بين الأقوال المتعلقة بالمعنى والأقوال المتعلقة بالحكمة، وقد ذكرنا بعضه إلا أننا نسوقه بتمامه لأهميته، فقد قال رحمه الله: "... والمقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في أنفسها.

فقال بعضهم: إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور، حكاه ابن جرير وهذا ضعيف، لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تُذكر، وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة.

وقال آخرون: بل ابتدئ بها لتُفتح باستماعها أسماع المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن، حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلَّف منه، حكاه ابن جرير أيضاً وهو ضعيف.

وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لأعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها"(٢١٦) ثم مال – رحمه الله –إلى هذا القول، وقد تقدم كلامه في ذلك.

ولا يمنع من هذا ما ذكره ابن القيم – رحمه الله – من مناسبة هذه الحروف بعضها لبعض من ناحية المخارج والصفات، على ما ذكره، ومناسبة الحروف المفردة كـ ﴿قٓ﴾ و ﴿صٓ﴾ لموضوعات السور التي افتتحت بها.

والله أعلم وأحكم وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المراجع العربية

السيوطي، جلال الدين. *الإتقان في علوم القرآن.* شركة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة: الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ.

العثيمين، محمد بن صالح. *أحكام من القرآن الكريم.* دار الوطن، الرياض: الطبعة الأولى،

(٢١٤) بدائع الفوائد (١٤٩/٣).

(٢١٥) بدائع الفوائد (١٦٢/١).

(٢١٦) تفسير ابن كثير (٥٥/١).

١٤٢٦هـ- ٢٠٠٦م.

العمادي، أبو السعود محمد بن محمد. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت: الطبعة الأولى.

البيهقي، أحمد بن الحسين. *الأسماء والصفات.* دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى.

الشنقيطي، محمد الأمين. *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.* الطبعة الأولى على نفقة الأمير أحمد ابن عبدالعزيز آل سعود ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب. *إعجاز القرآن.* تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

العكبري، عبدالله بن الحسين. *إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن.* أبو البقاء دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

البيضاوي، ناصر الدين. *أنوار التنزيل.* دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

الجزائري، أبو بكر. *أيسر التفاسير،* الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

لابن القيم. *بدائع الفوائد.* دار الكتاب العربي، بيروت: الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

الزركشي، بدر الدين. *البرهان في علوم القرآن،* تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت: الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

صقر، السيد أحمد. *تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.* شرح: دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الثالثة، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

ابن كثير، أبو الفداء. *تفسير القرآن العظيم.* دار الريان، بيروت: الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

تفسير النسفي. دار الكتاب العربي، بيروت: الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

حجازي، د. محمد محمود. *التفسير الواضح.* دار الكتاب العربي، بيروت: الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.

القاسم، أحمد بن عبدالرحمن. *تفسير القرآن بالقرآن والسنة والآثار.* الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

الطيب، أسعد محمد. تفسير ابن أبي حاتم. تحقيق: مكتبة: نزار الباز، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

السمعاني، أبو المظفر. *تفسير القرآن.* تحقيق غنيم عباس وياسر إبراهيم. دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى.

الصنعاني، عبدالرزاق بن همام. *تفسير القرآن،* تحقيق د. مصطفى مسلم، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

الوهيبي، عبدالله بن إبـــراهيم. *تفسير القرآن للعز بن عبدالسلام*. تحقيق، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

الشدي، د. عادل. *تفسير الراغب الأصفهاني من أول سورة آل عمران وحتى الآية رقم١١٣ من سورة النساء*. تحقيق: دار الوطن، الرياض: الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

العثيمين، محمد بن صـــالح. *تفسير سورة يس*. مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة: الطبعة الأولى. بدون تاريخ.

الزحيلي، المنير. *التفسير*. وهبة دار الفكر المعاصي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

طنطاوي، سيد محمد. *التفسير الوسيط*. دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٩٨م.

رضا، محمد رشـــيد. *تفسير المنار*. دار المنار، مصر: الطبعة الرابعة، ١٣٧٣هـ.

المراغي، أحمد مـــصطفى. *تفسير المراغي*. دار الفكر، بيروت: الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

ابن عاشور، محمد الطـــاهر. *تفسير التحرير والتنوير*. مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة: الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ.

تهذيب التهذيب ابن حجر العسقلاني. القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.

الحمد، عبـــدالقادر شـــيبه. *تهذيب التفسير*. مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٤هـ.

السعدي، عبـــدالرحمن. *تيسير الكريم الرحمن*. دار المدني، جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

القرطبي، أبو عبـــدالله . *الجامع لأحكام القرآن*. دار إحياء التراث العربي، بيروت: الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. *جامع البيان عن تأويل القرآن*، دار الفكر، بيروت: الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

الثعالبي، لعبد الرحمن . *الجواهر الحسان*. تحقيق: أبي محمد الغماري، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

الصاوي، أحمد بـــن محمـــد . *حاشية الصاوي على الجلالين*. ضبط وتصحيح: محمد عبدالسلام شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

السيوطي، جـــلال الـــدين . *الدر المنثور في التفسير بالمأثور*. دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى.

الآلوسي، شهاب الدين. *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن الجوزي، أبو الفرج . *زاد المسير في علم التفسير*. المكتب الإسلامي، بيروت: الطبعة الرابعة، - ١٩٨٧م.

البخاري، محمد بن إسماعيل. *صحيح البخاري*، دار السلام، الرياض: الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

عبدالباقي، محمد فؤاد. *صحيح مسلم.* تحقيق وتصحيح وترقيم: رئاسة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض ١٤٠٠هـ.

خان، صديق حسن. *فتح البيان في مقاصد القرآن.* عني بطبعه عبدالله الأنصاري. المكتبة العصرية، بيروت: الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

الشوكاني، محمد بن علي. *فتح القدير*، الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير. دار الفكر، بيروت: الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

نصار، د. حسين. *فواتح سور القرآن.* مكتبة الخانجي، القاهرة: الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

قطب، سيد. *في ظلال القرآن.* دار الشروق، القاهرة.

كشك، عبدالحميد. *في رحاب التفسير.* المكتب المصري الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

يوسف، حسن. *القول المبين في تفسير سورة يس.* مركز الكتاب للنشر، مصر، ١٤١٢هـ.

أحمد، مصطفى حسين. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل. للزمخشري، ضبط وتصحيح. دار الكتاب العربي، بيروت: الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد. *لباب التأويل.* ضبط: عبدالسلام شاهين. دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

الصالح، د. صبحي . *مباحث في علوم القرآن.* دار العلم للملايين، بيروت: الطبعة العاشرة ١٩٧٧م.

العدل، سعد عبدالمطلب . *الهيروغليفية تفسّر القرآن الكريم.* مكتبة مدبولي، القاهرة: الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

ابن قاسم، عبدالرحمن وابنه محمد. *مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.* جمع وترتيب، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، الرياض، تصويراً عن الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

محمد، عبدالسلام عبدالشافي. *المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي.* تحقيق. دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

ضميرية، عثمان جمعة وآخرين.. *معالم التنزيل للبغوي.* تحقيق، دار طيبة، الرياض: الطبعة الأولى ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

الصابوني، محمد علي. *معاني القرآن* . أبو جعفر النحاس، تحقيق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

الرازي، فخر الدين. *مفاتيح الغيب.* دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

المرعشلي، يوسف. *نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن*، لأبي بكر السجستاني، تحقيق، دار المعرفة، بيروت: الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

البقاعي، برهان الدين . *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. تحقيق: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

الماوردي، للقاضي. *النكت والعيون*. مراجعة السيد عبدالمقصود، دار الكتب العلمية، بيروت: الطبعة الأولى.

أبو العلا، محمد مصطفى. *نور الإيمان في تفسير القرآن*. دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

الرومي، أ.د. فهد. *وجوه التحدي والإعجاز في الأحرف المقطعة في أوائل السور*. مكتبة التوبة. الرياض: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

ضيف، شوقي. *الوجيز في تفسير القرآن*. دار المعارف، مصر، ١٩٩٤م.

الواحدي، أبي الحسن. *الوسيط*. تحقيق: عادل عبدالموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

Split Letters Prefixing Quranic Chapters: An Interpretive Study

Adel Ali Al-Shddy
Assistant Professor Dept. of Islamic Culture College of Education
King Saud University

(Received 3/1/1427H; accepted for publication 29/2/1428H.)

Abstract. The study handles a case that is object of different scholars' opinions, a difference that in many times reaches the extent of contradiction. The reason behind the discrepancy emerges in the first place due to their disagreement on how to regard the Arabic split letters that prefix some Quranic chapters, namely whether they belong to the "Muhkam" (the meaning of which is judged, firm and decisive), or to the "Mutashabih" (permitting many facets of interpretation, and their actual meaning is not known exactly).

The study highlights the importance of this topic, since these letters belong to the Quran, which Allah ordered to ponder on, to interpret and to understand. In addition, some of these letters constitute a complete verse, sometimes even two, and for eloquent people, the beginning of a text draws the attention to its content and points to its purpose. The statements reported from many of the early Muslims "Salaf", including a group of Prophet Muhammad's companions (Sahaba), in what concerns these split letters indicate the importance of posing the issue; not to mention the many irrational and illogical arguments interpreting the meaning of these letters, and which can only be repelled though study of the case.

A noticeable point in this case is the variant opinions of the scholars with regard to the meaning of the split letters; whereas some deemed them as "Mutashabih" which only Allah knows the meaning of, others claimed that they epresent names of Allah or of the Quran or of some of its chapters and sections. A third group went too far in believing that they are symbols for words in other non-Arabic languages like the Hieroglyphs, or refer to certain events using some arithmetical calculations. In the first chapter, which comprises eight subjects, the researcher details all these opinions and highlights the strong and weak sides in each of them.

Another point of discussion that the researcher was keen to put forth was the fact that some people confuse the opinions related to the meaning of the split letters with those interpreting the reason and secret behind beginning some Quranic chapters with these letters. For this point, the researcher dedicated a chapter constituting seven subjects, which handle the challenge, the inimitability and the differentiation between the Quranic chapters, in addition to inciting people to listen to the Quran and demonstrating the linguistic and thematic wondrous nature of the Quran.

The researcher concluded his study by summing up the most preponderant opinion with regard to the meaning and the purpose of the split letters at the beginning of the Quranic chapters.